دروس (٧ / ٤٣-٤٤)

سورة ٥٢

سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

حاشية

على

تفسير ابن كثير لسورة الطور

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ
الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ
سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا
(١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ
لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا
آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ
مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ
عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ
فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥)
قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ
قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ
قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا
مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ
الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ
كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا
سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧) وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩)﴾

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

[الدرس الأول]

قال الحافظ المفسِّر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ سُورَةِ الطُّورِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ

قَالَ مَالِكٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا -أَوْ: قِرَاءَةً- مِنْهُ.

أَخْرَجَاهُ مِنْ طَرِيقِ مَالِكٍ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَوْفَلٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ؛ قَالَتْ: شَكَوْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنِّي أَشْتَكِي، فَقَالَ: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ»، فَطُفْتُ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي إِلَىٰ جَنْبِ الْبَيْتِ يَقْرَأُ بِـ(الطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ).

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

يُقْسِمُ تَعَالَىٰ بِمَخْلُوقَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ: أَنَّ عَذَابَهُ وَاقِعٌ بِأَعْدَائِهِ، وَأَنَّهُ لَا دَافِعَ لَهُ عَنْهُمْ.

فَالطُّورُ هُوَ: الْجَبَلُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ أَشْجَارٌ، مِثْلَ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مُوسَىٰ، وَأُرْسِلَ مِنْهُ عِيسَىٰ، وَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَجَرٌ لَا يُسَمَّىٰ طُورًا، إِنَّمَا يُقَالُ لَهُ: جَبَلٌ.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ قِيلَ: هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. وَقِيلَ: الْكُتُبُ الْمُنَزَّلَةُ الْمَكْتُوبَةُ الَّتِي تُقْرَأُ عَلَىٰ النَّاسِ جِهَارًا؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾، ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ -بَعْدَ مُجَاوَزَتِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ-: «ثُمَّ رُفِعَ بِي إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ» يَعْنِي: يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ ويطوفون به، كما يَطُوفُ أَهْلُ الْأَرْضِ بِكَعْبَتِهِمْ كَذَلِكَ ذَاكَ الْبَيْتُ، هُوَ كَعْبَةُ أَهْلِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ؛ وَلِهَذَا وَجَدَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عَلَيْهِ

السَّلَامُ مَسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ؛ لِأَنَّهُ بَانِي الْكَعْبَةِ الْأَرْضِيَّةِ، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، وَهُوَ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ، وَفِي كُلِّ سَمَاءٍ بَيْتٌ يَتَعَبَّدُ فِيهِ أَهْلُهَا، وَيُصَلُّونَ إِلَيْهِ، وَالَّذِي فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا يُقَالُ لَهُ: بَيْتُ الْعِزَّةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ جَنَاحٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَيْتٌ يُقَالُ لَهُ: «الْمَعْمُورُ»؛ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ، وَفِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ نَهْرٌ يُقَالُ لَهُ: «الْحَيَوَانُ» يَدْخُلُهُ جِبْرِيلُ كُلَّ يَوْمٍ، فَيَنْغَمِسُ فِيهِ انْغِمَاسَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيَنْتَفِضُ انْتِفَاضَةً يَخِرُّ عَنْهُ سَبْعُونَ أَلْفَ قَطْرَةٍ، يَخْلُقُ اللهُ مِنْ كُلِّ قَطْرَةٍ مَلَكًا يُؤْمَرُونَ أَنْ يَأْتُوا الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ، فَيُصَلُّوا فِيهِ فَيَفْعَلُونَ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ فَلَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا، وَيُوَلَّىٰ عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ، يُؤْمَرُ أَنْ يَقِفَ بِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَوْقِفًا يُسَبِّحُونَ اللهَ فِيهِ إِلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ».

هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا، تَفَرَّدَ بِهِ رَوْحُ بْنُ جَنَاحٍ هَذَا، وَهُوَ الْقُرَشِيُّ الْأُمَوِيُّ مَوْلَاهُمْ أَبُو سَعْدٍ الدِّمَشْقِيُّ، وَقَدْ أَنْكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْحُفَّاظِ مِنْهُمُ: الْجَوْزَجَانِيُّ، وَالْعُقَيْلِيُّ، وَالْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللهِ النَّيْسَابُورِيُّ، وَغَيْرُهُمْ.

قَالَ الْحَاكِمُ: لَا أَصْلَ لَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَلَا سَعِيدٍ، وَلَا الزُّهْرِيِّ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ عُرْعُرَةَ؛ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِعَلِيٍّ: مَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ؟ قَالَ: بَيْتٌ فِي السَّمَاءِ يُقَالُ لَهُ: «الضُّرَاحُ» وَهُوَ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ مِنْ فَوْقِهَا، حُرْمَتُهُ فِي السَّمَاءِ كَحُرْمَةِ الْبَيْتِ فِي الْأَرْضِ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، لَا يَعُودُونَ فِيهِ أَبَدًا.

وَكَذَا رَوَاهُ شُعْبَةُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ سِمَاكٍ وَعِنْدَهُمَا أَنَّ ابْنَ الْكَوَّاءِ هُوَ السَّائِلُ عَنْ ذَلِكَ، ثُمَّ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي كُرَيْبٍ، عَنْ طَلْقِ بْنِ غَنَّامٍ، عَنْ زَائِدَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ قَالَ: سَأَلَ ابْنُ الْكَوَّاءِ عَلِيًّا عَنِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، قَالَ: مَسْجِدٌ فِي السَّمَاءِ يُقَالُ لَهُ: «الضُّرَاحُ»، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ أَبَدًا. وَرَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الطُّفَيْلِ، عَنْ عَلِيٍّ بِمِثْلِهِ.

وَقَالَ الْعَوْفِي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ بَيْتٌ حِذَاءَ الْعَرْشِ، تُعَمِّرُهُ الْمَلَائِكَةُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سبعون أَلْفًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، وَكَذَا قَالَ عِكْرِمَةُ، وَمُجَاهِدٌ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ مَسْجِدٌ فِي السَّمَاءِ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ، لَوْ خَرَّ لَخَرَّ عَلَيْهَا، يُصَلَّى فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ».

وَزَعَمَ الضَّحَّاكُ أَنَّهُ يُعَمِّرُهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُمْ: الجن، مِنْ قَبِيلَةِ إِبْلِيسَ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

اللهم نسألك علما نافعا وعملا صالحا، ربنا لا تكلنا لأنفسنا طرفة عين، وزدنا علما وعملا يا أرحم الراحمين.

هٰذه السّورة من السّور العظيمة التي في هٰذا الجزء لما اشتملت عليه من تقرير وحدانية الرّب جل وعلا، وإقامة الحجة علىٰ المشركين في هٰذا الأمر العظيم، وبيان عاقبة المكذِّبين، وبيان عاقبة الموحِّدين. فبيَّن ذلك في أوّل السُّورة، وبيّن عاقبة المكذبين في آخر السورة، وفيما بينهما بيَّن عاقبة الموحِّدين، ودلائل توحيد الله جل وعلا.

ولمَّا كانت القلوب حيَّةً قال أحد الصحابة -رضوان الله عليهم- لما سمع رسول الله ﷺ يتلو سورة الطور قال: فلما بلغ قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ قال: كاد قلبي يطير. وهٰذا لتدبُّرهم حضور قلوبهم وعلمهم بالحجج التي في هذا القرآن؛ لأنها حجة عظيمة بيِّنة.

والنبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قرأ سورة الطور في المغرب كما سمعتم في الحديثين، فرقها في الركعتين، والوقف جار فيما تعوّد القراء علىٰ قوله تعالىٰ فيها: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾؛ يعني في الركعة الأولىٰ؛ لأنّ هٰذا الوقف فيه نهاية مصير أهل الإيمان، ثم يبتدئ بعدها في بيان الدّلائل من قوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾ إلىٰ آخره.

قوله جل وعلا: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ الطّور في اللغة كما ذكر لك: الجبل الذي عليه شجر، والشّجر هو المعروف الكبير؛ يعني الذي يرتفع ويطُول.

والمقصود بالطّور هنا هو الجبل الذي كلّم الله -جل وعلا- عنده موسىٰ كما قال جل وعلا: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[القصص:٤٦]، فهٰذا الطّور شرُف وعظُم لمناداة الله -

جل وعلا- الكليم عنده.

ويقال أيضا: إنّه هو الجبل الذي تجلىٰ الرب -جل وعلا- له في قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[الأعراف:١٤٣]، الآية في الأعراف.

والقوْل الثاني أنّ الطّور هو جنس الجبال التي تسمىٰ في اللغة بالطّور، وهـٰذا القول وسياق ابن كثير يدلّ علىٰ استظهاره هـٰذا وترجيحه له؛ ولكن هـٰذا ليس بوجيه؛ وذلك لأن المقسم بها في هـٰذه السّورة كلها من الأشياء المقدَّسة التي عظمها الله جل وعلا؛ فقال: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ إلىٰ آخره، فهـٰذه الأُوَل في السورة كلها من الآيات العظيمة التي جعلها الله -جل وعلا- للأنبياء، والأمور المقدّسة المعظمة، والطور الذي هو الجبل الذي نادىٰ الله عنده موسىٰ يناسب ما ذُكر.

ثم أيضا يُقال: إنّه لم يأت في القرآن ذِكر الطور، ويُعنىٰ به الجبل الذي عليه الأشجار في اللغة، وإنما يعنىٰ بالطّور الجبل الخاص المعروف الذي هو في سَيْنَاء، وهـٰذا أوْلىٰ أن يُحمل عليه موارد السياق في القرآن.

وقال جل وعلا: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ وهـٰذا القسم كما ذكر لك أنه -جل وعلا- أقسم بالطّور؛ بذكر بعض مخلوقاته الدالة علىٰ قدرته.

والكتاب المسطور إذا قلنا: إنه هو الكُتب التي بأيدي الرسل، فإنه ليس قسمًا بالمخلوقات؛ لأنّ الكتب الإلهية كلام الرب جلّ وعلا.

فإذن قول ابن كثير في صدر كلامه: (يقسم الله ببعض مخلوقاته الدّالة علىٰ قدرته) هـٰذه تحتاج إلىٰ تقييد بأن يكون المراد بـ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ اللوح المحفوظ، أمّا إذا كان المراد الكتاب المسطور الذي هو بأيدي الرّسل فإنّ هـٰذا لا يصلح أن يقال: إنه مخلوق؛ لأنه كلام الله جل وعلا.

وأمّا اللوح المحفوظ فهو مخلوق من حيث إنه لوح، وفيه من كلام الله جل وعلا، وفيه من كتابته، وفيه من تقديره، وتفاصيل ما يحصل في ذلك .

والمسطور يعني الذي سُطِّر فيه الشيء، والفرق بين الكتابة والتسطير في اللّغة أن التسطير أعظم، حيث لا يصلح للتغيير.

والرَّق معروف ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ والمنشور هو الذي نُشر فعُلم.

فإذا قيل: إن ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ هو اللّوح المحفوظ، فيصير منه ما هو ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ للملائكة.

وإذا كان المراد الكتاب الإلهي الذي أنزل علىٰ الرسل عليهم صلوات الله وسلامه، فالمقصود بكونه منشورا أنه الذي ينشر للنّاس فيَعلمون ما فيه.

ثم قال جلّ وعلا: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤﴾، والبيت المعمور بيت في السماء كما ثبت في حديث الإسراء، ووجوده في السماء السابعة ثابت في الحديث الصحيح، والأحاديث في هٰذا كثيرة؛ لكن ما ذكر من الروايات من أنه يقال له: «الصراح» أو من أنه بحيال الكعبة لو سقط لسقط عليها وأشباه ذلك، هٰذه لم تثبت عليها سنة صحيحة، وإنما فيها روايات متعددة، وإلىٰ هٰذه الروايات ذهب من ذهب من أهل العلم إلىٰ ثبات الأرض وأن الأرض ثابتة، والسمٰوات مكتنفة لها من جميع الجهات بحيث إنّ موقع البيت الحرام واحد لا يتغير؛ لأنّ موقع البيت المعمور في السماء السابعة واحد لا يتغير، لو سقط هٰذا لسقط علىٰ الكعبة، فدلّ عندهم علىٰ أنّ الأرض ليست بدائرة، في بحث طويل معروف في هٰذه المسألة ودلائلها من الكتاب والسنة.

المقصود أنّه استُدل بهذا؛ لكن الأحاديث التي ذُكرت والآثار ليست قوّية في كون أنّ البيت المعمور لو سقط لسقط علىٰ المسجد الحرام، أو أن المسجد الحرام اختير هٰذا الموقع؛ لكونه بحيال -يعني بإزاء ومقابل- البيت المعمور.

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَشُعْبَةُ، وَأَبُو الْأَحْوَصِ، عَنْ سِمَاك، عَنْ خَالِدِ بْنِ عَرْعَرَة، عَنْ عَلِيٍّ ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ يَعْنِي: السَّمَاءَ، قَالَ سُفْيَانُ: ثُمَّ تَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾[الأنبياء]، وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وقَتَادَةُ، وَالسُّدِّيُّ، وَابْنُ جُرَيْج، وَابْنُ زَيْدٍ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُوَ الْعَرْشُ يَعْنِي: أَنَّهُ سَقْفٌ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَهُ اتِّجَاهٌ، وَهُوَ يُراد مَعَ غَيْرِهِ كَمَا قَالَهُ الْجُمْهُورُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: هُوَ الْمَاءُ الَّذِي تَحْتَ الْعَرْشِ، الَّذِي يُنْزِلُ اللهُ مِنْهُ الْمَطَرَ الَّذِي يُحْيِي بِهِ الْأَجْسَادَ فِي قُبُورِهَا يَوْمَ مَعَادِهَا. وَقَالَ الْجُمْهُورُ: هُوَ هَذَا الْبَحْرُ.

وَاخْتُلِفَ فِي مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْمُرَادُ أَنَّهُ يُوقَدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَارًا كَقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾[التكوير]، أَيْ: أُضْرِمَتْ فَتَصِيرُ نَارًا تَتَأَجَّجُ، مُحِيطَةً بِأَهْلِ الْمَوْقِفِ. رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، ورُوي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَبِهِ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ عُمير وَغَيْرُهُمْ..

قَالَ الْعَلَاءُ بْنُ بَدْرٍ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْبَحْرَ الْمَسْجُورَ لِأَنَّهُ لَا يُشرب مِنْهُ مَاءٌ، وَلَا يُسْقَىٰ بِهِ زَرْعٌ، وَكَذَلِكَ الْبِحَارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. كَذَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبير: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ يَعْنِي: الْمُرْسَلَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ الْمَمْلُوءُ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَوَجَّهَهُ بِأَنَّهُ لَيْسَ مُوقَدًا الْيَوْمَ فَهُوَ مَمْلُوءٌ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ الْفَارِغُ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ، عَنْ ذِي الرُّمَّةِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ قَالَ: الْفَارِغُ؛ خَرَجَتْ أُمَّةٌ تَسْتَسْقِي فَرَجَعَتْ فَقَالَتْ: «إِنَّ الْحَوْضَ مَسْجُورٌ»، تَعْنِي: فَارِغًا. رَوَاهُ ابْنُ مردويه في مسانيد الشعراء.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمَسْجُورِ: الْمَمْنُوعُ الْمَكْفُوفُ عَنِ الْأَرْضِ؛ لِئَلَّا يَغْمُرَهَا فَيُغْرِقَ أَهْلَهَا. قَالَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَبِهِ يَقُولُ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ، وَعَلَيْهِ يَدُلُّ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، فِي مُسْنَدِهِ، فَإِنَّهُ قَالَ:

حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا الْعَوَّامُ، حَدَّثَنِي شَيْخٌ كَانَ مُرَابِطًا بِالسَّاحِلِ قَالَ: لَقِيتُ أَبَا صَالِحٍ مَوْلَىٰ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا وَالْبَحْرُ يُشْرِفُ فِيهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَسْتَأْذِنُ اللهَ أَنْ يَنْفَضِخَ عَلَيْهِمْ، فَيَكُفُّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ».

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْه، عَنْ يَزِيدَ -وَهُوَ ابْنُ هَارُونَ-عَنِ الْعَوَّامِ بْنِ حَوْشَبٍ، حَدَّثَنِي شَيْخٌ مُرَابِطٌ قَالَ: خَرَجْتُ لَيْلَةً لِحَرَسِي لَمْ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنَ الْحَرَسِ غَيْرِي، فَأَتَيْتُ الْمِينَاءَ فَصَعِدْتُ، فَجَعَلَ يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّ الْبَحْرَ يُشْرِفُ يُحَاذِي رُءُوسَ الْجِبَالِ، فَعِلَ ذَلِكَ مِرَارًا وَأَنَا مُسْتَيْقِظٌ، فَلَقِيتُ أَبَا صَالِحٍ فَقَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ لَيْلَةٍ إِلَّا وَالْبَحْرُ يُشْرِفُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَسْتَأْذِنُ اللهَ أَنْ يَنْفَضِخَ عَلَيْهِمْ، فَيَكُفُّهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ». فِيهِ رَجُلٌ مُبْهَمٌ لَمْ يُسَمّ.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ هَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، أَيِ: الْوَاقِعُ بِالْكَافِرِينَ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَىٰ: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ أَيْ: لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ إِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِمْ ذَلِكَ.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي الدُّنْيَا: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مُوسَىٰ بْنُ دَاوُدَ، عَنْ صَالِحٍ الْمُرِيُّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ الْعَبْدِيِّ قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ يَعِسّ الْمَدِينَةَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَمَرَّ بِدَارِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَوَافَقَهُ قَائِمًا يُصَلِّي، فَوَقَفَ يَسْتَمِعُ قِرَاءَتَهُ فَقَرَأَ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ قَالَ: قَسَمٌ -وَرَبِّ الْكَعْبَةِ-حَقٌّ. فَنَزَلَ عَنْ حِمَارِهِ وَاسْتَنَدَ إِلَىٰ حَائِطٍ، فَمَكَثَ مَلِيًّا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ مَنْزِلِهِ، فَمَكَثَ شَهْرًا يَعُودُهُ النَّاسُ لَا يَدْرُونَ مَا مَرَضُهُ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو عُبَيْدٍ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ»: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ، عَنِ الْحَسَنِ: أَنَّ عُمَرَ قَرَأَ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ فَرَبَا لَهَا رَبْوَةً عِيدَ مِنْهَا عِشْرِينَ يَوْمًا.

قوله -جل وعلا- هنا: ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ كما سمعت أن السّقف هو السّماء؛ لأنّ الله -جل وعلا- جعلها سقفا، وامتنَّ علىٰ أهل الأرض بذلك كما قال سبحانه في سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ الأقوال للسلف فيه كثيرة؛ لكن الذي يدل عليه القرآن أولىٰ من غيره؛ وذلك أنّ الله -جل وعلا- بين لنا أن البحار ستسجّر يوم القيامة بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾[التكوير]،

والمسجور هو المسجَّر، وهو المضطرم نارا؛ يعني البحر المضطرم نارا باعتبار ما سيؤول إليه، ولا يمنع أن يوصف بالشّيء باعتبار ما سيؤول إليه؛ لأنّ إيال الشيء إلىٰ حقيقة ثابتة يصح معها أن يجزم بهٰذه الصفة؛ ونظيره قوله جلّ وعلا: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾[النحل: ١]، وأشباه ذلك.

أما قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ فهٰذا هو جواب القسم، وهٰذا قسم عظيم والجواب عليه عظيم أيضا.

ولهذا نقول: إنّ المقسَم به يدلّ علىٰ المقسَم عليه؛ يعني يدل علىٰ جواب القسم، ومعنىٰ المقسم عليه أو جواب القسم؛ يعني الشيء والغرض والغاية التي من أجلها أقسم المقسم بالقسم؛ فجواب القسم هو السبب الذي من أجله أقسم، فلِم أقسم الله -جل وعلا- بهٰذه الأشياء؟ أقسم بها؛ لأنه أراد تقرير وتأكيد وقوع العذاب فأكّد وقوع العذاب بالقسم السابق العظيم بأنواع من المقسم بها، وأكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ﴾ بـ(إنَّ) وأكد ذلك باللام، ولهذا اجتمعت هٰذه علىٰ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فما قوِي قلبه مع قوة هذا الوارد؛ فقوله جل وعلا: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١﴾ إلىٰ آخره ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ هٰذا فيه أن العذاب واقعٌ مؤكَّد، كما أنكم تعرفون الطور، وكما أنكم تعرفون الكتاب المسطور، والرَّق المنشور، كما أنكم تعرفون السقف المرفوع، هٰذه حقائق عندكم واضحة جليّة لا برهان عليها يُحتاج؛ بل هي ضرورية لا يشك فيها أحد، فكذلك عذاب الله -جل وعلا واقع علىٰ الكافرين ليس له دافع، وهٰذا من القسم العظيم البليغ المؤثر في نفوس أهل الإيمان أو في نفوس أهل الإدراك والعقل الصحيح.

وما ذكر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من كونه أصابه ما أصابه من الغشي والمرض لأجل سماعه هٰذا القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ يدل علىٰ أن الغالب من حال السلف والأكثر أنه يؤثّر عليهم القرآن بلا ضعف منهم، وقد يضعف القلب ويقوىٰ الوارد من القرآن والحجة فيصيب السامع غياب عن الوعي وغياب عن الإدراك بسبب قوة ما ورد وضعف القلب في ذلك الوقت -ليس ضعف القلب في الإيمان- ضعف القلب في استقبال هٰذا القسم والمقسم عليه.

ولهذا ذهب علماؤنا وأئمة السنة إلىٰ أن الأكمل في الحال أن يتأثّر المرء بالكتاب وبوعيد الله وبآياته، بما لا يُخرجه عن الحال الكاملة، وهي حال النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- وحال الصحابة وجمهور السلف من أنهم لا يغيبون عن وعيهم بورود مثل هٰذا الوعيد الشديد؛ بل يتأثرون وتَجِلُ القلوب وتدمع

العيون؛ ولكن لا يصلون إلىٰ المرض وأشباه ذلك.

وخرّج أهل العلم كثرة ما ورد من ذلك عن بعض الموثوق هم من أهل السنة من المتزهّدة من أنهم كثر عندهم الخوف الشديد بحيث أنه إذا تُليت مثل هـٰذه الآيات أصابهم هلع وخوف ربما تركوا معه بعض الواجبات؛ لأجل العذر؛ يعني كما حصل لعمر أنه عيد شهرا إن صحت الرواية.

قالوا: هذا لأجل ضعف يقينهم وإيمانهم ونقصهم عن حال الصحابة وحال السلف، فإنّ الوارد إن كان قويا والقلب ضعيف عن استقبال هـٰذا الوارد فإنه يضعف معه بحيث يلطِم هـٰذا الوارد القلب فلا يستفيق من شدة الوارد؛ يعني من شدة المانع من شدة ما فيها، فقوله -جل وعلا- هنا: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ ﴾ هـٰذا ليس فيه أنه للكافرين أو علىٰ المؤمنين؛ بل هو شدة ما يحصل يوم القيامة، وهو يوم عصيب يطول جدا، وهو عذاب حاصل علىٰ الجميع، إلا من أمنه الله جل وعلا حيث ذكر ذلك في قوله: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾[الأنبياء:١٠٣].

المقصود أنّ الواجب علىٰ العباد أن يكمّلوا أنفسهم بحسب ما يستطيعون في تحقيق قوة التأثر بهذا القرآن.

وأما حال أهل الجفاء الجافين هم الذين لا يتأثرون يسمع آيات الله فلا يجِلُ القلب ولا تدمع العين، دائما هـٰذه حاله قلبه قاس عن التدبر عن اللين عن الاستكانة لهذا القرآن العظيم، وهـٰذا كلام الله جل وعلا فيه وعده ووعيده وتهديده وتخويفه ﷻ.

ولهذا ينبغي علىٰ المؤمن أن يعود نفسه تأثر بهذا القرآن، وأن يرق قلبه له ونشكو في مثل هـٰذا الزمن من الجفاء، وليس من حصول مثل قوّة الوارد فيما ورد عن عمر، أو فيما كثر عن الصحابة، نشكو من عكس ذلك وهو ضعف القلوب، أو قسوة القلوب عن التأثّر بالقرآن، فكأن الله -جل وعلا- لم يقسم ولم يأت بنُذُره ووعيده الشديد وهـٰذا ولاشك إما من ضعف التدبُّر أو من قسوة القلوب.

نسأل الله -جل وعلا- العافية في ذينك الأمرين جميعا.

نقف عند هـٰذا.

[الدرس الثاني]

وَقَوْلُهُ: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقَتَادَةُ: تَتَحَرَّكُ تَحْرِيكًا. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ تَشَقُّقُهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: تَدُورُ دَوْرًا. وَقَالَ الضَّحَّاكُ: اسْتِدَارَتُهَا وتحريكها لأمْرِ الله، وموج بعضها في بَعْضٍ. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّهُ التَّحَرُّكُ فِي اسْتِدَارَةٍ. قَالَ: وَأَنْشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ بَيْتَ الْأَعْشَىٰ:

كَأَنَّ مشْيَتَها مِنْ بيتِ جَارتِها ... مَورُ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ ﴾ أَيْ: تَذْهَبُ فَتَصِيرُ هَبَاءً مُنْبَثًّا، وَتُنْسَفُ نَسْفًا.

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ﴾ أَيْ: وَيْلٌ لَهُمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَنَكَالِهِ بِهِمْ، وَعِقَابِهِ لَهُمْ.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ ﴾ أَيْ: هُمْ فِي الدُّنْيَا يَخُوضُونَ فِي الْبَاطِلِ، وَيَتَّخِذُونَ دِينَهُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا.

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾ أَيْ: يُدْفَعُونَ وَيُسَاقُونَ ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ ﴾ وَقَالَ مُجَاهِدٌ، وَالشَّعْبِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وَالثَّوْرِيُّ: يُدْفَعُونَ فِيهَا دَفْعًا.

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ ﴾ أَيْ: تَقُولُ لَهُمُ الزَّبَانِيَةُ ذَلِكَ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا ﴾ أَيِ: ادْخُلُوهَا دُخُولَ مَنْ تَغْمُرُهُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أَيْ: سَوَاءٌ صَبَرْتُمْ عَلَىٰ عَذَابِهَا وَنَكَالِهَا أَمْ لَمْ تَصْبِرُوا، لَا مَحِيدَ لَكُمْ عَنْهَا وَلَا خَلَاصَ لَكُمْ مِنْهَا، ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾ أَيْ: وَلَا يَظْلِمُ اللهُ أَحَدًا؛ بَلْ يُجَازِي كُلًّا بِعَمَلِهِ.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ حَالِ السُّعَدَاءِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾، وَذَلِكَ بِضِدِّ مَا أُولَئِكَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أَيْ: يَتَفَكَّهُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنَ النَّعِيمِ، مِنْ أَصْنَافِ الْمَلَاذِّ، مِنْ مَآكِلَ وَمَشَارِبَ وَمَلَابِسَ وَمَسَاكِنَ وَمَرَاكِبَ وَغَيْرِ ذَلِكَ، ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ أَيْ: وَقَدْ نَجَّاهُمْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بِذَاتِهَا عَلَىٰ حِدَتِهَا مَعَ مَا أُضِيفَ إِلَيْهَا مِنْ دُخُولِ الْجَنَّةِ، الَّتِي فِيهَا مِنَ السُّرُورِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خطر عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾، كَقَوْلِهِ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الْحَاقَّةِ] . أَيْ هَذَا بِذَاكَ، تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ قَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: السُّرُرُ فِي الْحِجَالِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو؛ أنه سمع الهيثم بن مَالِكٍ الطَّائِيَّ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَّكِئُ الْمُتَّكَأَ مِقْدَارَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُ وَلَا يَمَلُّهُ، يَأْتِيهِ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُهُ وَلَذَّتْ عَيْنُهُ».

وَحَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا هُدْبَةُ بْنُ خَالِدٍ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، عَنْ ثَابِتٍ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ الرَّجُلَ لَيَتَّكِئُ فِي الْجَنَّةِ سَبْعِينَ سَنَةً، عِنْدَهُ مِنْ أَزْوَاجِهِ وَخَدَمِهِ وَمَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنَّعِيمِ، فَإِذَا حَانَتْ مِنْهُ نَظْرَةٌ فَإِذَا أَزْوَاجٌ لَهُ لَمْ يَكُنْ رَآهُنَّ قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَقُلْنَ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَجْعَلَ لَنَا مِنْكَ نَصِيبًا.

وَمَعْنَىٰ ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أَيْ: وُجُوهُ بَعْضِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ، كَقَوْلِهِ: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾[الصَّافَّاتِ] . ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أَيْ: وَجَعَلْنَاهُمْ قَرِينَاتٍ صَالِحَاتٍ، وَزَوْجَاتٍ حِسَانًا مِنَ الْحُورِ الْعِينِ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾: أَنْكَحْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ، وَقَدْ تَقَدَّمَ وَصْفُهُنَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ هاهنا.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه من اهتدىٰ بهداه.

أما بعد:

فهٰذه الطائفة من الآيات فيها وصف ما يحصل يوم القيامة، وهي تفصيل لإجمال ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ ثم فيها وصف أهل النعيم ووصف أهل الجحيم؛ فقال جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ وذكر لك أن المور علىٰ القول الصحيح هو الحركة في استدارة، وهذا هو المعروف في اللغة من كلمة مور، مار، يمور، مورا، إذا تحرك في دوران.

ولذلك يقال في القتل بالسكين مثلا أو بنحوه: أن هذا بما له مور؛ يعني بماله حركة في استدارة .

فقوله جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ يعني يوم تتحرك السماء وتدور ﴿مَوْرًا﴾؛ أي حركة ودورانا، والتأكيد بالمصدر من فوائده أنّ فيه إظهار عظمة الشيء؛ وفيه إظهار هول الشيء؛ لأن التأكيد بالمصدر له مقتضيات في علم المعاني في البلاغة ومنها التأكيد علىٰ أهميته بإظهار عظمته أو ما أشبه ذلك.

هنا أسند المور إلىٰ السماء فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ وهذا بفعل الملائكة يوم القيامة، والمقصود قبل يوم القيامة لأن السماء تتغير وتبدل والأرض تتغير وتبدل استعدادا لعذاب الله جل وعلا جل وعلا ولذلك اليوم العصيب كما قال سبحانه يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار والسماء تنشق فتكون وردة كالدهان؛ فهذه الآيات يفسر بعضها بعضا ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾[الرَّحمٰن]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾[الانشقاق] هذا كله يحصل قبل بعث الناس قبل قيام الناس للأجساد يعني قيام الناس القيامة الكبرىٰ وبعث الأجساد؛ يعني يحصل ما بين نفخة الصعق ونفخة البعث بينما ما بين النفختين يحصل هذا التغيُّر العظيم من مور السماء وتسيير الجبال ونسف الجبال ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾[طه].

قال سبحانه: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ (ويل) هذه كلمة تكررت في القرآن وفُسرت بعدة تفسيرات؛ **والذي يجمعها أنها كلمة تهديد بالعذاب**، وقد يكون عذابا معينا كما قال بعض السلف: إنّ الويل واد في جهنم، وقد يكون جنس العذاب والتهديد، وقوله: (ويل)

تهديدٌ بالعذاب، ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾[الماعون]؛ هذا تهديد بالعذاب ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾ تهديد بالعذاب، وقد يكون من العذاب واد في جهنم خاص يعذب فيه طائفة من أهلها.

قال سبحانه هنا: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢﴾ خوض كما ذكر لك أنهم يخوضون في الباطل وفي رد الرسالة وفي رد التوحيد وفي الاستهزاء بالبعث وبما أخبر الله جل وعلا به؛ وهم مع هذا الخوض ﴿يَلۡعَبُونَ﴾؛ يعني أنهم لم يرفعوا رأسا بالحق ولم يأبهوا به بل كان كلامهم في ذلك من جهة اللعب وهٰذا كثير؛ كما قال سبحانه: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾[الأنبياء:٢]، فالمشركون حتىٰ في حال سماعهم لما جاءت به الرسل يلعبون، لم يُصغوا إليه ولم يرفعوا به رأسا ولم يسمعوه سماع قلب؛ لهذا نفي في القرآن أنه يسمعون أصلا فقال سبحانه: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعٗا ١٠١﴾[الكهف]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾[الأنفال]، و هذا بسبب أنهم يخوضون في الحق علىٰ جهة اللعب، ولو سمعوا أو استمعوا فإنه من جهة الأذن وهم في جوارحهم وقلوبهم لاعبون ولاهون.

وقال: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّٗا ١٣﴾ يعني يساقون إليها بغلظةوشدة ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ الأوامر التي تتوجه إلىٰ من لا يطلب منه أن يمتثل لها قوله هنا: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ يراد منها التهديد والتقريع، وهٰذا كقوله تعالىٰ: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾[الدخان]، وأشباه ذلك؛ فإن الأمر إذا توجه إلىٰ من يراد منه أن يمتثل بل هو ممتثل قصرا لا اختيارا فيكون هذا فيه التوبيخ والتهديد، وهو أحد معاني الأمر الثمانية وعشرين.

وقد ذكرنا لكم من قبل أن في مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ أن الفاء التي تأتي بعد الهمز هٰذه، أو الواو أو الفاء ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾، وأشباه هذا الفاء هنا والواو تكون عاطفة علىٰ حملة محذوفة تقدر ما بين الهمز والفاء، وتحذف بدلالة السياق عليها أو لأنها مفهومة فقوله تعالىٰ: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥﴾ يعني: أتقولون: إنكم لستم في عذاب أفسحر هذا هل أنتم لا تبصرون؟ أو ما أشبه ذلك من التقادير.

والهمز مثل ما ذكرت لكم مرارا في الآيات:

إذا كان ما بعدها مثبت فإن الهمز يكون للتوبيخ والتقريع.

وإذا كان ما بعدها غير مثبت وغير واقع فإن الهمز تكون للإنكار، فترىٰ أن المفسرين يكثرون من هذا فيقولون: هذا إنكار من الله جل وعلا، ويقولون: هذا توبيخ وتقريع.

وهذا ليس من جهة المعنىٰ الذي ضابط له؛ بل هذا مضبوط في اللفظ فإن الهمز إذا كان ما بعدها مثبت تكون للتوبيخ والتقريع، وإذا كان ما بعدها غير مثبت فإنها تكون للإنكار.

مثال ذلك لأنه أوضح من ذلك المكان في قوله سبحانه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾[النمل:٦٠] هنا تزيل الهمز فيكون الكلام: إله مع الله، وهل إله مع الله مثبت أو منفي ؟ منفي غير مثبت، فإذن تكون الهمز هنا للإنكار، إله مع الله هذا منفي؛ لا إله مع الله، فيكون الهمز هنا إنكار تسلط علىٰ غير مثبت علىٰ منفي، وإذا كان ما بعدها مثبت فيكون للتوبيخ والتقريع.

كقوله: أتقولون إن مع الله آلهة أخرىٰ؟ هنا نشيل الهمز فيكون الكم تقولون: إن مع الله آلهة أخرىٰ ، هذا ثابت أو غير ثابت ؟ ثابت قالوا ذلك ، فتكون الهمز هنا للتوبيخ والتقريع، في أشباه هذا كثير في القرآن؛ لكن هذا هو الضابط والمعنىٰ يختلف بحسب ما ذكرنا .

طبعا الهمز له معاني كثيرة لا يأتي دايا للوبيخ والإنكار قد يأتي للتقرير، قد يكون الهمز لطلب الإستفهام، أدخل محمد، هذا طلب الفهم، قد يكونم للتقرير، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾[يس:٦٠]، هذا للتقرير؛ بل عهد ﷻ ،وإذا كان هذا المخاطب بمثل هذا مقِر أصلا ومتذكّر هذا الإقرار فتكون الهمز للإنكار؛ لأنك تزيلها تقول: لم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان، هذا مثبت أو مني؟ عهد سبحانه أو لم يعهد؟ عهد، هنا قال: لم أعهد، وهذا النفي منفي؛ لأنه سبحانه عهد، فإذن تكون الهمز للإنكار ولهذا نقول: إذا توجه إلىٰ متذكّر فتكون للإنكار، وإذا توجحه لغير متذكر يعني في هذا الموضع تكون للتقرير.

هذا تنظرونه في كتب حروف المعاني في بيان أحوال الهمزة مثل «مغني اللبيب» وغيره.

﴿ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ الآيات الكلام عليها واضح؛ ولكن في قوله: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ ما يعطىٰ أهل الجنة من النساء علىٰ قسمين:

نساء من أهل الجنة.

ونساء من أهل الدنيا.

فنساء الدنيا هن الزوجات، كما ثبتت في «الصحيح» أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال: «أو زمرة يدخلون الجنة علىٰ صورة البدر لكل منهم زوجتان»، وحُمل هذا علىٰ أن الزوجتان من أهل الدنيا، وأما الحور العين فهُن زوجات من أهل الجنة؛ فالحور العين لسن من أهل الدنيا؛ بل الله جل وعلا يزوج أهل الدنيا من نساء الجنة، وهنا لفظ ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم﴾ يعني أنكحناهم بالحور العين، وبالمفهوم أن نساء الدنيا هنا سبق زواجهن من الرجل، وهذا واضح في بعض الأحوال؛ يعني فيمن مات وزوجته معه ولم تتزوج بعده.

وأما المرأة إذا تزوجت بعد الرجل فإنها تخير في أي الرجلين تريد: هل تريد الأول أو تريد الثاني من أهل الدنيا، فإن تزوجت اثنين ثلاثة من رجال الدنيا فإنها تخير في الجنة من تريد منهم، والنساء أيضا اللاتي لم يتزوجن في الدنيا يخيرن فيمن يتزوجن به في الجنة؛ يعني أن لكل أحد زوجة، فالرجل له زوجة أو زوجات، وكذلك كل امرأة له زوج في الجنة ممن كتب الله حل وعلا لهم الجنة.

صفات نساء الدنيا غير صفات الحور العين، الحور العين لهن صفات أخرىٰ، ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات].

كلام العلماء علىٰ أنها تخير؛ لكن هو ظاهر في الموت إذا مات عنها زوجها وأخذت غيره ظاهر أنها تخير؛ مثل ما جاء في بعض الأحاديث.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ، وَامْتِنَانِهِ وَلُطْفِهِ بِخَلْقِهِ وَإِحْسَانِهِ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ يُلحقهم بِآبَائِهِمْ فِي الْمَنْزِلَةِ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغُوا عَمَلَهُمْ، لِتَقَرَّ أَعْيُنُ الْآبَاءِ بِالْأَبْنَاءِ عِنْدَهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، فَيَجْمَعُ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ الْوُجُوهِ، بِأَنْ يَرْفَعَ النَّاقِصَ الْعَمَلِ، بِكَامِلِ الْعَمَلِ، وَلَا يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ عَمَلِهِ وَمَنْزِلَتِهِ، لِلتَّسَاوِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذَاكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

قَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّة، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ فِي دَرَجَتِهِ، وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ، لِتَقَرَّ بِهِمْ عَيْنُهُ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾.

رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، بِهِ. وَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّة بِهِ. وَرَوَاهُ الْبَزَّارُ، عَنْ سَهْلِ بْنِ بَحْرٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ حَمَّادٍ الْوَرَّاقِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ الرَّبِيعِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّة، عَنْ سَعِيدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَرْفُوعًا، فذكره، ثم قال: وقد رواه الثوري، عن عمرو بن مرة، عَنْ سَعِيدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ مَزِيدٍ الْبَيْرُوتِيُّ، أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ شُعَيْبٍ أَخْبَرَنِي شَيْبَانُ، أَخْبَرَنِي لَيْثٌ، عَنْ حَبِيبِ بْنِ أَبِي ثَابِتٍ الْأَسَدِيِّ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِ اللهِ، عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ قَالَ: هُمْ ذُرِّيَّةُ الْمُؤْمِنِ، يَمُوتُونَ عَلَىٰ الْإِيمَانِ: فَإِنْ كَانَتْ مَنَازِلُ آبَائِهِمْ، أَرْفَعَ مِنْ مَنَازِلِهِمْ أُلْحِقُوا بِآبَائِهِمْ، وَلَمْ يَنْقُصُوا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي عَمِلُوا شَيْئًا.

وَقَالَ الْحَافِظُ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ إِسْحَاقَ التُّسْتَرِي، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ غَزْوان، حَدَّثَنَا شَرِيكٌ، عَنْ سَالِمٍ الْأَفْطَسِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -أَظُنُّهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ- قَالَ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ الْجَنَّةَ سَأَلَ عَنْ أَبَوَيْهِ وَزَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَبْلُغُوا دَرَجَتَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ لِي وَلَهُمْ. فَيُؤْمَرُ بِإِلْحَاقِهِمْ بِهِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الْآيَةَ.

وَقَالَ الْعَوْفِي، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: يَقُولُ: وَالَّذِينَ أَدْرَكَ ذُرِّيَّتَهُمُ الْإِيمَانُ فَعَمِلُوا بِطَاعَتِي،

أَلْحَقْتُهُمْ بِإِيمَانِهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَأَوْلَادُهُمُ الصِّغَارُ تَلْحَقُ بِهِمْ.

وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَىٰ التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّ ذَاكَ مُفَسَّرٌ أَصْرَحَ مِنْ هَذَا. وَهَكَذَا يَقُولُ الشَّعْبِيُّ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَإِبْرَاهِيمُ، وقَتَادَةُ، وَأَبُو صَالِحٍ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ. وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ:

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا حَمَدُ بْنُ فُضَيْلٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ زَاذَانَ، عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: سألتْ خَدِيجَةُ النَّبِيَّ ﷺ، عَنْ وَلَدَيْنِ مَاتَا لَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هُمَا فِي النَّارِ». فَلَمَّا رَأَىٰ الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِهَا قَالَ: «لَوْ رَأَيْتِ مَكَانَهُمَا لَأَبْغَضْتِهِمَا». قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَوَلَدِي مِنْكَ. قَالَ: «فِي الْجَنَّةِ». قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْلَادَهُمْ فِي النَّارِ». ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الْآيَةَ.

هَذَا فَضْلُهُ تَعَالَىٰ عَلَى الْأَبْنَاءِ بِبَرَكَةِ عَمَلِ الْآبَاءِ، وَأَمَّا فَضْلُهُ عَلَى الْآبَاءِ بِبَرَكَةِ دُعَاءِ الأبناء، فقد قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُود، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْفَعُ الدَّرَجَةَ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَّىٰ لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ».

إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَلَمْ يُخَرِّجُوهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَلَكِنْ لَهُ شَاهِدٌ فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ لَمَّا أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْفَضْلِ، وَهُوَ رَفْعُ دَرَجَةِ الذُّرِّيَّةِ إِلَىٰ مَنْزِلَةِ الْآبَاءِ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ يَقْتَضِي ذَلِكَ، أَخْبَرَ عَنْ مَقَامِ الْعَدْلِ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُؤَاخِذُ أَحَدًا بِذَنْبِ أَحَدٍ؛ بَلْ ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ أَيْ: مُرْتَهَنٌ بِعَمَلِهِ، لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ذَنْبُ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِ، سَوَاءٌ كَانَ أَبًا أَوِ ابْنًا، كَمَا قَالَ: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾[المُدَّثِّر].

قوله جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾ سمعت ما فيها؛ وأن قول الأكثر من أهل العلم من الصحابة ومن بعدهم أن المقصود بالذرية هنا

الأبناء، وأن الابن إذا تبع أباه في الإمان وإن قصّر في العمل فإنه إذا دخل الجنة بسبب إيمانه فإنه يرفع إلىٰ منزلة أبيه وهذا فضل من الله جل وعر ونعمة.

وهذا ظاهر من جهة أن معنىٰ الذرية يعني الأولاد.

والقول الثاني وقد سمعته أيضا في كلام ابن كثير أن المقصود بالذرية هم الآباء ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ يعني واتبعتهم آباؤهم بإيمان؛ لأن كلمة ذرية في اللغة تطلق في الأكثر علىٰ الأبناء وتطلق أيضا علىٰ الآباء باعتبار السبب؛ كما قال جل وع في سورة يس: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ٤٢﴾ فإن تفسير الجمهور في قوله ﴿ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ في سورة يس ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ يعني آباءهم؛ لأن الله امتن علىٰ الحاضرين بحمل الماضين بالمفلك المشحون وهذا يعني أن كلمة (ذرية) تطلق علىٰ الأبناء وتطلق علىٰ الآباء: فإطلاقها علىٰ الأبناء بالأصل، وإطلاقها علىٰ الآباء لأنهم السبب، لهذا اختلفوا هل يلحق الإبن إذا كان الابن أرفع منزلة، وذكر لك أن قول الأكثرين أن الذرية في هذه الآية هم الأبناء.

وقال طائفة من أهل العلم: أيضا يدخل فيها الآباء لأن هذا فضل من الله جل وعلا، ومن تمام لذة الكامل الذي رفع الله درجته أن يُلحق به إن كان أقل منه درجة، وأن يلحق به أبوه إذا كان أقل منه درجة، وهذا فضل من الله جل وعلا ونعمة، والآية فيها دلالة علىٰ هذا القول؛ لأن كلمة ذرية تتعين في اللغة و لا في استعمال القرآن علىٰ أحد الوجهين دون الآخر كما ذكرنا لكم في آية يس.

وإن كان الظاهر فيها والأولىٰ هو قول الجمهور لأن الذرية المقصود بهم الأبناء؛ وهو الذي عليه قول جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ قوله هنا: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُمۡ﴾ هذا قد يرجح القول الأول أن الذرية المراد بهم الأبناء دون الآباء؛ لكن قال الآخرون: كلمة (اتبع) لا تعني أنه أتىٰ بعد، فأتباع الرسل اتبعوا الأنبياء سواء منهم من أتىٰ قبل أو منهم من أتىٰ بعد. وهذا جواب.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هٰذا يعم الطائفتين، فيه مدخل لأصحاب القول الثانبي.

وكلمة ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ والكلام علىٰ أولاد المشركين فيما ساقه من أن خديجة سألت النبي ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية؟ فقال: «هما في النار» هذه المسألة المشهورة في مسألة أولاد المشركين وفيها أقوال

متعددة لأقوال المشركين عشرة أو أكثر.

والصحيح فيها أن أولاد المشركين موقوف الحكم عليهم وأمرهم حتىٰ يختبروا في الآخرة كما ثبت في «الصحيحين» أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ سئل علىٰ أولاد المشركين؟ فقال: «الله أعلم بما كانوا عاملين» يعني لو بلغوا فأدركوا الله أعلم بما كانوا عاملين فيختبرون من جنس من يختبر في عرصات القيامة والله ﷻ بما يؤول أمرهم؛ فقوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ في هذا الحديث: «هما في النار» يدل علىٰ أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ؛ يعني علىٰ القول المختار أُطلع علىٰ شأنهم وأخبر بذلك.

أما أولاد المؤمنين فإنهم في الجنة بالإجماع، من توفي من أولاد المؤمنين قبل البلوغ؛ بعد نفخ الروح فيه إذا سقط ميتا، وإن مات قبل البلوغ إذا مات فهو في الجنة بالإجماع، ولا ينبغي أن يحكىٰ خلافا في هٰذا، وأن هؤلاء يقال فيهم: الله أعلم بما كانوا عاملين؛ بل هذا في أولاد المشركين، أما أولاد أهل الإيمان فهم في الجنة، هذا من جهة الجنس.

أما المعين فإنه لا يشهد له، ولهذا لما قالت عائشة للنبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أحد الصغار لما مات قالت: «طوبىٰ له عصفور من عصافير الجنة»، قال: «يا عائشة ما يدريك؛ إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا» يعني فيها أنه لا يشهد لمعين؛ بل يقال في الجنس: أولاد المؤمنين في الجنة، أما المعين الذين مات فلا يشهد له بذلك من جهة الاحتياط؛ ولهذا يدعىٰ لمن مات صغيرا سواء كان سِقطا بعد نفخ الروح فيه وما دون البلوغ يعني من أول أمره إلىٰ ما قبل البلوغ لا يدعىٰ له بالمغفرة، فإنما يدعىٰ في صلاة الجنازة علىٰ الصغير لوالديه بالمغفرة، يدعىٰ لوالديه أما هو فلا يدعىٰ بالمغفرة فإنما يدعىٰ لوالديه كما قال العلماء، ويسأل الرب جل وعلا أن يكون فرطا لوالديه في الجنة وشافعا لهما، والأحاديث في الدعاء للصغير ثابتة معروفة.

الباقي واضح إن شاء الله.

[الدرس الثالث]

قال المصنف:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أَيْ: وَأَلْحَقْنَاهُمْ بِفَوَاكِهَ وَلُحُومٍ مِنْ أَنْوَاعٍ شَتَّىٰ، مِمَّا يُسْتَطَابُ وَيُشْتَهَىٰ.

وَقَوْلُهُ: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أَيْ: يَتَعَاطَوْنَ فِيهَا كَأْسًا، أَيْ: مِنَ الْخَمْرِ. قَالَهُ الضَّحَّاكُ. ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ أَيْ: لَا يَتَكَلَّمُونَ عَنْهَا بِكَلَامٍ لَاغٍ أَيْ: هَذَيَان وَلَا إِثْمٍ أَيْ: فُحْش، كَمَا تَتَكَلَّمُ بِهِ الشَّرَبَةُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اللَّغْوُ: الْبَاطِلُ. وَالتَّأْثِيمُ: الْكَذِبُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَا يَسْتَبُّونَ وَلَا يُؤَثِّمُونَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مَعَ الشَّيْطَانِ.

فَنَزَّهَ اللهُ خَمْرَ الْآخِرَةِ عَنْ قَاذُورَاتِ خَمْرِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا، فَنَفَىٰ عَنْهَا -كَمَا تَقَدَّمَ- صُدَاعَ الرَّأْسِ، وَوَجَعَ الْبَطْنِ، وَإِزَالَةَ الْعَقْلِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا لَا تَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ الْكَلَامِ السَّيِّءِ الْفَارِغِ عَنِ الْفَائِدَةِ الْمُتَضَمِّنِ هَذَيَانا وفُحشا، وَأَخْبَرَ بِحُسْنِ مَنْظَرِهَا، وَطِيبِ طَعْمِهَا وَمَخْبَرِهَا فَقَالَ: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصَّافَّاتِ]، وَقَالَ: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الْوَاقِعَةِ]، وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾: إِخْبَارٌ عَنْ خَدَمهم وحَشَمهم فِي الْجَنَّةِ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ الرَّطْبُ، الْمَكْنُونُ فِي حُسْنِهِمْ وَبَهَائِهِمْ وَنَظَافَتِهِمْ وَحُسْنِ مَلَابِسِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الْوَاقِعَةِ].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أَيْ: أَقْبَلُوا يَتَحَادَثُونَ وَيَتَسَاءَلُونَ عَنْ أَعْمَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا كَمَا يَتَحَادَثُ أَهْلُ الشَّرَابِ عَلَىٰ شَرَابِهِمْ إِذَا أَخَذَ فِيهِمُ الشَّرَابُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ.

﴿قَالُوٓا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أَيْ: قَدْ كُنَّا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَنَحْنُ بَيْنَ أَهْلِنَا خَائِفِينَ مِنْ رَبِّنَا مُشْفِقِينَ مِنْ عَذَابِهِ وَعِقَابِهِ، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ أَيْ: فَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا وَأَجَارَنَا مِمَّا نَخَافُ.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أَيْ: نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ فَاسْتَجَابَ اللهُ لَنَا وَأَعْطَانَا سُؤْلَنَا، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾.

وَقَدْ وَرَدَ فِي هَذَا الْمَقَامِ حَدِيثٌ، رَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَزَّارُ فِي مُسْنَدِهِ فَقَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ، حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ دِينَارٍ، حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ صُبَيْحٍ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ اشْتَاقُوا إِلَىٰ الْإِخْوَانِ، فَيَجِيءُ سَرِيرُ هَذَا حَتَّىٰ يُحَاذِيَ سَرِيرَ هَذَا، فَيَتَحَدَّثَانِ، فَيَتَّكِئُ هَذَا وَيَتَّكِئُ هَذَا، فَيَتَحَدَّثَانِ بِمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: يَا فُلَانُ، تَدْرِي أَيَّ يَوْمٍ غَفَرَ اللهُ لَنَا؟ يَوْمَ كُنَّا فِي مَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا، فَدَعَوْنَا اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَغَفَرَ لَنَا».

ثُمَّ قَالَ الْبَزَّارُ: لَا نَعْرِفُهُ يُرْوَىٰ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ.

قُلْتُ: وَسَعِيدُ بْنُ دِينَارٍ الدِّمَشْقِيُّ قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: هُوَ مَجْهُولٌ، وَشَيْخُهُ الرَّبِيعُ بْنُ صُبَيْحٍ قَدْ تَكَلَّمَ فِيهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ جِهَةِ حِفْظِهِ، وَهُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ ثِقَةٌ فِي نَفْسِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَوْدِيّ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَىٰ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَائِشَةَ؛ أَنَّهَا قَرَأَتْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ مُنَّ عَلَيْنَا وَقِنَا عَذَابَ السَّمُومِ، إِنَّكَ أَنْتَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ. قِيلَ لِلْأَعْمَشِ: فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: نَعَمْ

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

اللهم نسألك علما نافعا وعملا صالحا وقلبا خاشعا.

نعوذ بك اللهم من الرياء والسمعة ونعوذ بك مما أعاذ بك الأنبياء والصالحون.

أما بعد، فقول الحق تبارك وتعالىٰ في هذه السورة العظيمة سورة الطور: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣﴾، قولهم: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ هذا فيه ذكر لجنس اللذة بالمآكل والمشارب، فإن أنواع اللذات الحاصلة في الدنيا ثَم جنسها يحصل في الجنة، الإنسان في الدنيا يلتذ بالطعام، تلتذ بالشراب، ويلتذ بما يرىٰ، ويلتذ بما يسمع، يلتذ ببعض ما يرىٰ ويلتذ ببعض ما يسمع، وتلتذ نفسه برؤية تميزه عن غيره، وتلتذ نفسه بأهله، وتلتذ نفسه بخدمه، وتلتذ نفسه أيضا بولده.. إلىٰ غير ذلك من أنواع أصول اللذات في الدنيا.

فالله جل وعلا جعل الدنيا لما فيها من جنس اللذات، وفي ما فيها من جنس العذاب والعقوبة والمؤذيات؛ جعل ذلك جنسا لما في الآخرة.

فاللذات في الدنيا في الآخرة لذات أعظم منها وأجل، والسيئات والمؤذيات في الدنيا في الآخرة ما هو أعظم منها وأقبح، فإذا رأيت لذة في الدنيا أو سمعت بها أو تلذذت بها علىٰ أي وجه كانت فاعلم أن في الآخرة ما هو أعظم منا، وكذلك إذا مر بك مؤذ في الدنيا بأي أنواع الأذىٰ النفسي والحسي، ومن جهة الرؤيا ومن جهة السماع؛ أي نوع من أنواع المؤذيات ففي الآخرة أيضا أعظم منه وأقبح من أنواع المؤذيات في النار، ولهذا لما سئل بعض أهل العلم فقيل له: إن في الدنيا من أنواع المخلوقات ما هو مؤذ للإنسان ولا نفع فيه، فما الحكمة في وجوده؟ قال: لتتذكر بالمؤذيات أنواع النكال في الآخرة، فإذا رأيت لذة الدنيا فهي تذكير باللذة الدا ئمة في الجنة، وإذا رأيت مؤذيا في للدنيا فهو تذكير بالمؤذيات في الآخرة.

وهذا يجعل قلب المؤمن حيا دائما فيما يرىٰ مما يسره، وفيها يرىٰ مما يسوؤه، فيتذكر بما يسره نعيم الجنة، ويتذكر بما يسوؤه وما ينغص عليه عيشه العذاب في الآخرة.

والله جل وعلا هنا قال: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾﴾ هٰذا من أنواع المكرمات التي تحصل به اللذات المطعومة، ثم قال في أنواع المشروبات قال: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ هذا نوع من اللذات إلىٰ آخره، وقبلها في لذات الأولاد حتىٰ قال بعض الناس: لِم تفاوت الناس في المنزلة في الجنة...

أقل من مناسبة هذا التفاوت العظيم في الجزاء في الآخرة «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف كما يتراؤون الكوكب الدري في السماء»، فقال بعض أهل العلم في جواب هذا السؤال: لأن رؤية القاصر من تمام لذة الكامل، فالله جل وعلا جمع لأهل الجنة أنواع اللذات؛ حتىٰ إنه في الدنيا كما يلتذ الغني أو السيد أو الكبير يلتذ برؤية من هو أقل منه، فكذلك في الجنة يحصل له هذه اللذة، فما من لذة في الدنيا إلا وفي الآخرة يعني في الجنة ما هو أعظم منها؛ بل وما قبل الجنة، فالفزع في الدنيا والأمن في الدنيا ثم مثال له في عرصات القيامة.

المقصود أن هذا تذكير بالجنس، وفي القرآن تنتبه لهذا كثيرا؛ فإنه في الآيات يذكر جنس اللذات بأنواعها، فتحيط بأنواع اللذات في الموقف، وتارة تذكر طائفة من اللذات، ولا تذكر طائفة لمناسبة

المقام، ففي بعضها يذكر شيء ولا يذكر نوع آخر؛ لأجل مناسبة المقام.

هنا قال جل وعلا: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾، قوله: ﴿كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ فسرت بأنها الخمر وهذا تفسير صحيح؛ لقوله: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، ونسبة اللغو أن يكون في الكأس قال: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾؛ يعني لا لغو في الكأس ، ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ في الكأس، ومعلوم أن ما في الكأس من المشروب لا يوصف بأنه لغو ولا يوصف بأنه تأثيم، إنما هو وسيلة للغو ووسيلة للإثم، والخمر يطلق عليها إثم باعتبار ما تؤول إليه إذا شربت كما قال الشاعر:

شربت الإثم حتىٰ ضل عقلي كذلك الخمر تفعل بالعقول

فقوله: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ يدل علىٰ القاعدة المعروفة تدل علىٰ أن الوسائل لها أحكام الغايات، وكذلك لها اسم الغاية، فيطلق علىٰ المبتدأ اسم المنتهىٰ، ويطلق علىٰ الوسيلة اسم الغاية باعتبار الاشتراك في الحكم، فسميت الخمر اثم وسميت لغو وسميت تأثيم لأنها كذلك.

وقوله جل وعلا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ يتساءلون عن أي شيء؟ حذق ما وقع عليه السؤال وذلك لعظمته، وأنه في العلم به في مقام والمعروف لفظا وحسا وحاضرا فلا يحتاج إلىٰ التنصيص عليه؛ لمقام ظهوره وبيانه، ولعدم الحاجة إليه. قال: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، يتساءلون عما هم فيه من النعيم؛ كما في مواضع يحذف المفعول سواء كان مما يتعدىٰ إليه الفعل بنفسه أو بحرف الجر، يحذف لغايات:

منها ما ذكرت لك، وهذا هو الذي يناسب هذا الموضع؛ فقوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يعني أهل الجنة ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يعني كيف دخلنا الجنة؟ ما الذي عملناه؟ فقال بعضهم كذا مما قص الله جل وعلا هنا فقال سبحانه: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ فذكروا أعظم صفة من صفات أهل الجنة وهي أنهم كانوا في الدنيا مشفقين، وهذا يبين لك عظم شأن الخوف والإشفاق من عذاب الله جل وعلا؛ فإنه لا يجتمع زكاء النفس مع الأمن لا يجتمع طيب النفس زكاؤها وتقربها إلىٰ الله جل وعلا مع عدم الخوف من الله جل وعلا والإشفاق؛ بل كل عبد من عباد الله من المقتصدين أو من المسابقين في الخيرات فإنه خائف وجل مشفق من عذاب الله ﷻ، لهذا ذكروا صفتهم الخاصة أنهم كانوا في أهلهم مشفقين. قال جل وعلا: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾، وقوله: ﴿فِىٓ أَهْلِنَا﴾ تنبيه بالأدنىٰ علىٰ الأعلىٰ؛ لأن الذِّكر بالأهل، أو وجود المرء مع أهله مدعاة لاطمئنانه وأمنه وعدم خوفه، فذكر أنهم كانوا مشفقين في

حال وجودهم مع أهليهم، فمعنىٰ ذلك أنهم في غير هذه الحال التي هي حال اللهو وحال الدعة وحال الطمأنينة هو أولىٰ بالإشفاق؛ فمعنىٰ هذا أن الإشفاق مداوم معهم دائما علىٰ خوف وعلىٰ وجل؛ لأن ذكر الأهل أو وجود المرء في أهله مدعاة لعدم الخوف وإشفاقه؛ كما ثبت في الصحيح «أن رجلا شكىٰ إلىٰ النبي ﷺ ما يجد في قلبه فسأله لم؟ فقال: يا رسول الله؛ إنا كنا عندك ووجلت قلوبنا وكأننا نرىٰ الجنة رأي عين، وإذا ذهبنا إلىٰ بيوتنا عافسنا النساء ولهونا مع الأهل، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «لو تدومون علىٰ ما أنتم عندي لصافحتكم الملائكة في الطرقات؛ ولكن ساعة فساعة»، وهذا في حال الاطمئنان كان أهل الجنة مشفقين، وهذا يدل علىٰ عظم هذه الصفة التي ينبغي علىٰ طالب العلم، وعلىٰ كل مسلم أن يتعاهدها في نفسه؛ حالة الإشفاق والخوف؛ لأنه إذا عود نفسه عدم الخوف والتعبد بهذه العبادة العظيمة فإن الشيطان يأتيه من جميع الأبواب.

قال: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا﴾ المِنّة هي الإعطاء بلا مقابل، ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾؛ يعني أعطانا هذه الجنة ووقانا عذاب السموم بلا مقابيعنيل؛ لم نعمل شيئا ولم نقدم شيئا به يحصل لنا دخول الجنة والنجاة من عذاب السموم، وهذا ظاهر المعنىٰ؛ لأن دخول أهل الجنة الجنة ونجاة أهل الجنة من النار هو بفضل الله جل وعلا وبرحمته، وليس ذلك لأجل أعمالهم، وإنما الأعمال بها رفعة الدرجات، الأعمال بها رفعة المنازل واختلاف المنازل.

أما أصل دخول الجنة وأصل التزحزح عن النار فإنما هو منة من الله جل وعلا؛ إذ هذا الأمر الجلل لا يقابله الأعمال التي يعملها العباد؛ ولهذا ثبت في الصحيح انه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ قال: «لن يُدخل أحدا منكم الجنة عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضلا»، فأصل دخول الجنة منة، وأصل التزحزح من النار منة؛ لهذا في آية آل عمران قال: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾[آل عمران:١٨٥]؛ فدخول الجنة هو مِنّة من الله جل وعلا، والأعمال سبب من الأسباب وليس مقابلة بدخول الجنة؛ يعني ليست عوضا، ليست الجنة عوضا عن الأعمال؛ لكن الأعمال سبب في دخول الجنة، سبب في رحمة الله ﷻ كما قال: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ يعني بالدعاء هنا دعاء المسألة أو دعاء العبادة؛ فيشمل الحالين فقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ يعني نعبده أو نسأله أن يعطينا الجنة، وأن

يزحزحنا عن النار؛ ولهذا عائشة فهمت من الدعاء هنا دعاء المسألة.

فقوله: ﴿نَدْعُوهُ﴾ يشمل الحالين دعاء العبادة ودعاء المسألة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾؛ وقوله هنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ هـذا تعليـل؛ لأن مجـيء (إن) في مثـل هذا المقام يفيد التعليل؛ تعليل المنة عليهم، تعليل دخولهم الجنة، تعليل نجاتهم مـن النـار، تعليـل هـذا النعيم الذي هم فيه أنه جل وعلا برٌّ رحيم ﷻ.

و﴿ٱلْبَرُّ﴾ هو الذي يعطي بلا منة، يعطي عطاء واسعا بلا منة فيه.

و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ معروف هو المتّصف بصفة الرّحمة.

وقوله هنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ هذا الضمير ضـمير الفصـل ﴿هُوَ﴾ هٰـذا يكثـر في القـرآن، وهـو ضمير لا محل له من الإعراب، يؤتىٰ به في الفصل ما بين الخبر والمبتدأ لإزالة اشتباه الخبر بالنعت.

فمثلا هنا أصل الكلام: الله البر الرحيم، لو قال: إن الله البر الـرحيم لاشـتبه أن تكـون (الـبر الـرحيم) نعت لله أو هي خبر، ما ندري.

مثلا تقول: محمد القادم، ما ندري القادم تخبر عن محمد القادم، أو تريد تصف محمد تنعته أنه قـادم والخبر سيأتينا: محمد القادم عالم ، أو تريد: محمد هو القادم فيؤتىٰ بضمير الفصل هنا مـن جهـة النحـو للفصل ما بين الخبر والمبتدأ لإزالة اشتباه الخبر بالنعت، هذا من جهة النحو.

ومن جهة البلاغة فإن مجيء ضمير الفصل ما بين الخبر والمبتدأ أو مـا أصـله أو خـبر إن واسـمها أو خبر كان واسم كان.. إلىٰ آخره هذا يفيد التأكيد وتحقق الصفة، وهذا كثير في القرآن.

فإذا أتىٰ ضمير الفصل فإنه يفيد التأكيد تأكيد الكلام وتحقُّق الصفة؛ يعني تحقق التي في الخبر للمبتـدأ مـثلا في قولـه جـل وعـلا: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف]، لاحظ ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ خبر (كان)، ﴿هُمُ﴾ جاء ضـمير الفصـل لا محـل لهـا مـن الاعـراب، تقول: ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا تقل: كانوا هم الخاسرون، كانوا هـم الخاسـرين ، فـ(هـم) كأنهـا غيـر موجودة من جهة الاعراب ، فتسلط ما قبلها علىٰ ما بعـدها هنـا تفيـد تحقـق تأكيـد الوصـف بالخسـارة وتحقق هـذا الوصـف فـيهم: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾[نـوح]، هنـا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾[غافر] لتحقق تأكيد الكلام والتعريف وتحقق الوصف.

فبهذا يتّضح لك مثل هذا التعليل في دعائهم وعظم مناسبته ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾ فتوسلوا إلىٰ الله جل وعلا بصفاته وليس فقط توسلا بالصفات؛ لكن أكدوها، واستعملوا الألفاظ الدالة علىٰ تحقق الصفة في الحق جل وعلا، وعلىٰ ثبوتها له؛ ليكون أعظم في وسيلتهم.

ومعلوم أن الألفاظ هي قوالب المعاني، لهذا أعظم ما يكون من الدعاء الذي يستعمله المؤمنون هو الدعاء المأثور؛ لأن فيه من المعاني البلاغية والمعاني الشرعية ما يعجز الناس عن إنشاء دعاء يكون شاملا قويا عاما بليغا مثل الأدعية في الكتاب والسنة؛ لا من جهة إنشائها ولا من جهة التعليلات.

... أسماء الله جل وعلا أعلام وصفات، الاستدلال صحيح، لأنها لو كانت أعلام محضة ما صار فيها هذه الفائدة من مجيء (هو)، ففي الكلام العربي كلها في الصفات دائما هو لتأكيد الوصف؛ لأن مجيء الفصل للتفريق ما بين الخبر والنعت، هٰذا استنتاج جيد جزاك الله خيرا.

[الدرس الرابع]

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ آمِرًا رَسُولَهُ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، بِأَنْ يُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ إِلَىٰ عِبَادِهِ، وَأَنْ يُذَكِّرَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ. ثُمَّ نَفَىٰ عَنْهُ مَا يَرْمِيهِ بِهِ أَهْلُ الْبُهْتَانِ وَالْفُجُورِ فَقَالَ: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ أَيْ: لَسْتَ بِحَمْدِ اللهِ بِكَاهِنٍ كَمَا تَقَوَّلَهُ الْجَهَلَةُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ. وَالْكَاهِنُ: الَّذِي يَأْتِيهِ الرِّئِيُّ مِنَ الْجَانِّ بِالْكَلِمَةِ يَتَلَقَّاهَا مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ، ﴿وَلَا مَجْنُونٍ ﴾: وَهُوَ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمْ فِي الرَّسُولِ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾ أَيْ: قَوَارِعُ الدَّهْرِ. وَالْمَنُونُ: الْمَوْتُ: يَقُولُونَ: نُنْظِرُهُ وَنَصْبِرُ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ فَنَسْتَرِيحَ مِنْهُ وَمِنْ شَأْنِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ أَيِ: انْتَظِرُوا فَإِنِّي مُنْتَظِرٌ مَعَكُمْ، وَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ الْعَاقِبَةُ وَالنُّصْرَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنُ أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ قُرَيْشًا لَمَّا اجْتَمَعُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: احْتَبِسُوهُ فِي وِثَاقٍ، ثُمَّ تَرَبَّصُوا بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ حَتَّىٰ يَهْلَكَ، كَمَا هَلَكَ مَنْ هَلَكَ قَبْلَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ: زُهَيْرٌ وَالنَّابِغَةُ، إِنَّمَا هُوَ كَأَحَدِهِمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ أَيْ: عُقُولُهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِهَذَا الَّذِي يَقُولُونَهُ فِيكَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْبَاطِلَةِ الَّتِي يَعْلَمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنَّهَا كَذِبٌ وَزُورٌ؟ ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ أَيْ: وَلَكِنْ هُمْ قَوْمٌ ضُلَّالٌ مُعَانِدُونَ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ مَا قَالُوهُ فِيكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ ﴾ أَيِ: اخْتَلَقَهُ وَافْتَرَاهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، يَعْنُونَ الْقُرْآنَ: قَالَ اللهُ: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ أَيْ: كُفْرُهُمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ هَذِهِ الْمَقَالَةِ. ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أَيْ: إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ: "تَقَوَّلَه وَافْتَرَاهُ" فَلْيَأْتُوا بِمِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُمْ لَوِ اجْتَمَعُوا هُمْ وَجَمِيعُ أَهْلِ الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، مَا جَاءُوا بِمِثْلِهِ، وَلَا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِنْ مِثْلِهِ، وَلَا بِسُورَةٍ مِنْ

مِثْلِهِ.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ومصطفاه، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

أما بعد؛ فقال الله جل وعلا: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ ﴾ هٰذه الآيات فيها تقرير رسالة النبي ﷺ، وأنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مرسل من ربه لا مرية في ذلك ولا شبهة، وفيها دلائل النبوة.

وذلك أن المتقرر أن دليل نبوة نبينا ﷺ راجع إلىٰ أشياء:

منها أنما ما أتىٰ به من القرآن ليس هو بكلام الكهنة ولا كلام الشعراء ولا كلام البشر، وهذا ظاهر في الآيات في آخرها ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ۝٣٤ ﴾ وفيهم الخطباء وفيهم الشعراء وفيهم الكهنة وفيهم عادي الناس فإنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بحديث مثله ، وهذا نوع من أنواع الأدلة .

النوع الثاني من أنواع أدلة النبوة أن الله جل وعلا أمر نبيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ أن يتحدّاهم وأن يقول لهم هذا الكلام، ثم هم علىٰ اجتهادهم في دحض الرسالة وعلىٰ ردها والسعي في جمع ما يظنونه أنه مبطل للرسالة مع تحدِّيهم لم يأتوا شيئا من ذلك؛ بل عجزوا ورجعوا القهقرىٰ. وهذا دليل آخر؛ لأنهم لو كان عندهم شيء لبذلوه وقولنا لو كان عندهم شيء يعني عند الجن والإنس جميعا؛ لأن من الإنس كهنة والكهنة متصلون بالجن، ولهذا قال جل وعلا: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ ﴾[الإسراء].

والنوع الثالث من الأدلة التي في هٰذا المقام أن النبي ﷺ كيد به في أنواع من الكيد بقتله ولإيذائه، والله جل وعلا جعل له من كل ضيق مخرجا، وهذا تأييد خاص له عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لأنه مرسل لإبلاغ رسالة ربه ولم يتم الإبلاغ، وقد قال جل وعلا لنبيه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾[المائدة:٦٧]، وهذه آية مدنية كما هو معلوم؛ لأنها من سورة المائدة وفي سبب نزولها؛ لكن هذه عامة إذ إنّ المشركين فعلوا ما فعلوا لقتله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ؛ ولكن لم يفلحوا حتىٰ إنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ ذرَّ عليهم شيئا من رملٍ في عيونهم فغُشيت

أبصارهم فلم يبصروا شيئا قال جل وعلا في سورة يس: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾ والفعل القليل مثل هذا مع عضم الكيد يكون إلا لنبي.

والعلماء تكلّموا كثيرا في دلائل النبوة وأنواع براهين النُّبوة في كتبهم من أهل السنة ومن غيرهم.

المقصود أن هذه الآيات اشتملت علىٰ هذه الأنواع الثلاثة بوضوح من دئلائل النبوة قال جل وعلا: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ ﴾، وقوله: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ الباء هنا هي الواقعة في خبر ليس ومفيدة للمصاحبة؛ ولأن ما هذه تعمل عمل (ليس) ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ الباء في ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾، وأما الباء في قوله: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ فهذه للمصاحبة، وهذه لها فائدة من جهة البلاغة: أن نعمة ربك عليه قد أصبحت لصيقة بك فلا انفكاك لها عنك، ولا انفكاك لك منها؛ لأن الأصل في الباء في اللغة أن تكون للإلصاق وإلصاق الذوات بالقرب وإلصاق المعاني بالملابسة.

وإذا كان كذلك فمعنىٰ الآية: فما أنت بكاهن ولا مجنون لأجل ملابسة النعمة لك وإلصاقها بك وعدم انفكاكها عنك ولا افكاكك عنها، وإذا كانت نعمة الله جل وعلا موصولة بهذا؛ فهذا يعني أنه لن يضره شيء، وهذا استئناس له عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ وتثبيت؛ لأنه أُمر بالتذكير، ومعلوم ما أصاب النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ في مكة من الشِّدة من المشركين وأشياء عدّة..

قوله: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ﴾ فيها بحث من جهة أن النِّعمة أخصُّ من الرحمة؛ فنعمة الله جل وعلا فرع من فروع رحمته ﷻ، ورحمة الله جل وعلا فيها العُموم للجميع، وأما النعمة ففيها خصوص، والنِّعمة هي من الله دائما؛ ولكن هنا أضافها إلىٰ الربوبية لتأكيد عِظمها، وأنها من المتصرِّف المدبِّر لكل شيء، والكهانة والجنون هذه تكلم عنها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، ومعلوم شأن الكهان وشأن المجنونين.

والمقصود بالمجنون هنا ما يشمل نوعين:

الأول من به مسٌّ من جنون فينطق الجني علىٰ لسان الإنسي.

والثاني من به جنون في عقله، والمجنون في عقله قد يقول كلاما حسنا، قد يقول كلاما مرتبا فيه حكمة، كما قالت العرب: خذ الحكمة من أفواه المجانين .

والأول أظهر يعني أن المقصود من به مس جن؛ لأن أكثر المفسرين علىٰ هٰذا.

والريب في قوله: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ ﴾، الريب يطلق علىٰ معانٍ في القرآن؛ ومنها أصل معنىٰ

الريب؛ وهو الشك، كما في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[البقرة:٢].

ويطلق الريب بمعنىٰ الحاجة: لي ريب في كذا؛ يعني لي حاجة في كذا ، كما قال الشاعر :

قضينا من تهامة كلَّ ريب وخيرا ثم أجمعنا السيوف

يعني قضينا من تهامة كل حاجة.

وفي هذا الموطن فُسِّر بأن الريب إذا أضيف إلىٰ المنون يعنىٰ به الحاجة، وهذه الحاجة إذا كانت في موقع متعدي كما هنا ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ يعني حاجة المنون إذ هم محتاجون إليها.

والوجه الثاني أن ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ كلمة تقال، والريب هنا بمعنىٰ الشك، وريب المنون قيل كذلك؛ لأن من عاين الموت أصابه الشك وأصابه القلق؛ يعني أن كلمة ريب علىٰ معناها الأول، أو علىٰ المعنىٰ الثاني.

فهناك استعمالات للريب للقرآن متعددة؛ المقصود أن قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ هذا قولهم: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾، وهذا هو التهديد وعدم المبالات.. إلىٰ أن قال جل وعلا في آخرها: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ هذا يعنىٰ به القرآن.

والقرآن تحدي به علىٰ ثلاث مراحل:

- تحدي بأن يأتوا بمثل القرآن كما في هذه الآية، وهذا في الأول العهد المكي.

- وتحدي بأن يؤتىٰ بمثل عشر سور، وذلك في أواخر العهد المكي كما في سورة هود ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[هود:١٣]، ومعلوم أن سورة هود في آخر العهد المكي.

- وتحدي أيضا بأن يؤتىٰ بسورة، السورة هنا سورة قصيرة أو سورة طويلة، وهذا كله مما لم يقدر المشركون عليه.

إذا تبين ذلك؛ فهاهنا بحث في مسألة إعجاز القرآن كما هو معلوم، والبحث فيها يطول؛ لأنها صُنِّفت فيها مصنفات تكلم العلماء فيها كثيرا؛ لكن ننبه إلىٰ أن أهل السنة والجماعة يقرِّرون أن إعجاز القرآن؛ يعني وجه كون القرآن آية وبرهانا من الله جل وعلا ومعجزا للخلق راجع إلىٰ ثلاثة أشياء :

أولا أنه كلام الله، وكلام الله جل وعلا لا يمكن أن يسوغ البشر مثله البتة؛ لأن كلام الله جل وعلا غير كلام الناس، كما أن الناس متفاوتون في كلامهم؛ فلا يمكن أن يأتي العامي بمثل كلام العالم، ولا أن يأتي الجاهل بمثل كلام الأديب، فهٰذا لسانه يختلف عن لسان هٰذا، ولن يستطيع العوام ولو اجتمعوا أن

يأتزوا بمثل كلام العلماء، هذا بين البشر؛ فكلام الله جل وعلا له خواصه وله ما يتصف به؛ له صفاته وله خصائصه.

فإذن الوجه الأول من الإعجاز أن هذا كلام الله جل وعلا، وكلام الله يشتبه بكلام المخلوق ولا يمكن أن يشتبه، فلو أنشأ المخلوق كلاما لا يمكن أن يكون ككلام الله جل وعلا؛ بل كلام الله ﷻ صفته؛ يعني هذا القرآن.

ومعلوم أن القرآن كتاب هداية، لهذا فالله جل وعلا حين تكلم به وجعل ما تكلم يبه ممن الوحي قرآنا؛ فإنه علىٰ ما يقدر عليه الإنس والجن، علىٰ ما يقدر عليه المكلفين من حيث الاستيعاب والفهم، وإلا فكلام الله جل وعلا لا تحده حدود؛ ولكن هذا أعلىٰ ما يستوعبون أكثر من ذلك؛ ولهذا لا زال العلماء يخرجون من كلام الله جل وعلا الدرر والعجائب في التفسير والمعاني، تنقضي أجيال وأمم وتفنىٰ ولم يفطنوا لبعض ما في القفرآن، ثم يأتي من يفطن لذلك، وهذا راجع إلىٰ جهات كثيرة، جهات علمية وعملية وكونية وشرعية... إلىٰ الأقسام المعروفة في إعجاز القرآن.

النوع الثاني مما قرره أهل السنة في أوجه إعجاز القرآن: أن **إعجازه جاء باللفظ والمعنىٰ جميعا**، وليس إعجازه بألفاظ دون معاني، ولا بمعاني دون ألفاظ؛ بل إعجازه بألفاظه؛ فألفاظه معجزة، وبمعانيه فمعانيه أيضا معجزة؛ فاتصال اللفظ باللفظ معجز، وتركيب المعنىٰ مع المعنىٰ معجز؛ لا يستطيع البشر علىٰ ذلك.

والثالث من الأوجه ما يسمىٰ **بالنظم** نظم القرآن؛ وهو اتصال الألفاظ بعضها مع بعض، ترتيب المعاني بعضها مع بعض، واتصال الآيات بعضها مع بعض.

وهذا النظم مما تناوله كثيرون وأهل السنة يقررونه علىٰ ما ذكرتُ لك.

فإذن عندنا في إعجاز القرآن أنواع -عند أهل السنة-؛ وهذه متلخصة في الثلاثة هٰذه:

الأول: أنه كلام الله، وكلام الله يمكن أن يشبه كلام المخلوق، حتىٰ في التأثر به، في سماعه، في الخشوع له، له سلطان علىٰ النفوس؛ لأنه كلام الله.

والثاني: أن إعجازه راجع إلىٰ ألفاظه وإلىٰ معانيه؛ فألفاظه معجزة من حيث اتصال بعضها ببعض، ومعانيه معجزة من ترتُّب بعضها علىٰ بعض، من حيث دلالاتها.

والثالث من الأوجه عند أهل السنة: النَّظم وهو اتصال الألفاظ بالألفاظ والمعاني بالمعاني والآيات

وبالآيات، ومعلوم أن تركيب الآيات توقيفي.

قال المصنف:

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هَذَا الْمَقَامُ فِي إِثْبَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ أَيْ: أَوُجِدُوا مِنْ غَيْرِ مُوجِدٍ؟ أَمْ هُمْ أَوْجَدُوا أَنْفُسَهُمْ؟ أَيْ: لَا هَذَا وَلَا هَذَا، بَلِ اللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُمْ وَأَنْشَأَهُمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا مَذْكُورًا.

قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا الحُمَيديّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: حَدَّثُونِي عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جبير ابن مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَرَّجٌ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ طُرُقٍ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، بِهِ. وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ كَانَ قَدْ قَدِمَ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ فِي فِدَاءِ الْأُسَارَىٰ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ مُشْرِكًا، وَكَانَ سَمَاعُهُ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَمَلَهُ عَلَىٰ الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَ ذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ أَيْ: أَهُمْ خَلَقُوا السَّمٰوات وَالْأَرْض؟ وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ فِي شِرْكِهِمْ بِاللهِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْخَالِقُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ. وَلَكِنَّ عَدَمَ إِيقَانِهِمْ هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أَيْ: أَهُمْ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْمُلْكِ وَبِيَدِهِمْ مَفَاتِيحُ الْخَزَائِنِ، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أَيِ: الْمُحَاسِبُونَ لِلْخَلَائِقِ، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ؛ بَلِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ هُوَ الْمَالِكُ الْمُتَصَرِّفُ الْفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ ﴾ أَيْ: مَرْقَاةٌ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ، ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ أَيْ: فَلْيَأْتِ الَّذِي يَسْتَمِعُ لَهُمْ بِحُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ.

عَلَىٰ صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْفِعَالِ وَالْمَقَالِ، أَيْ: وَلَيْسَ لَهُمْ سَبِيلٌ إِلَىٰ ذَلِكَ، فَلَيْسُوا عَلَىٰ شَيْءٍ، وَلَا لَهُمْ دَلِيلٌ.

ثُمَّ قَالَ مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا نَسَبُوهُ إِلَيْهِ مِنَ الْبَنَاتِ، وَجَعْلِهِمُ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا، وَاخْتِيَارِهِمْ لِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ عَلَىٰ الْإِنَاثِ، بِحَيْثُ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. هَذَا وَقَدْ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللهِ، وَعَبَدُوهُمْ مَعَ اللهِ، فَقَالَ: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ وَهَذَا تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ وَوَعِيدٌ أَكِيدٌ، ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا ﴾ أَيْ: أُجْرَةً عَلَىٰ إِبْلَاغِكَ إِيَّاهُمْ رِسَالَةَ اللهِ؟ أَيْ: لَسْتَ تَسْأَلُهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ شَيْئًا، ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ أَيْ: فَهُمْ مِنْ أَدْنَىٰ شَيْءٍ يَتَبَرَّمُونَ مِنْهُ، وَيُثْقِلُهُمْ وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ، ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ أَيْ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ من أهل السَّمٰوات وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ، ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ: أَمْ يريد هؤلاء بقولهم هَذَا فِي الرَّسُولِ وَفِي الدِّينِ غُرُورَ النَّاسِ وَكَيْدَ الرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ، فَكَيْدُهُمْ إِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالُهُ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ، ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾. وَهَذَا إِنْكَارٌ شَدِيدٌ عَلَىٰ الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْأَصْنَامَ وَالْأَنْدَادَ مَعَ اللهِ. ثُمَّ نَزَّهَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ عَمَّا يَقُولُونَ وَيَفْتَرُونَ وَيُشْرِكُونَ، فَقَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

هذه الآيات في أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات؛ وذلك أن قوله جل وعلا: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ هٰذه في ذكر أفراد الربوبية، ومن المعلوم أنَّ...

ويلزم من توحيده أن يوحد الله جل وعلا في الإلهية، وأن من وحّد الله في الإلهية فإن توحيده ذاك متضمِّن -ولو لم يذكر- متضمن إقراره بأن الله هو الرب وحده دونما سواه؛ لأنه إذا عبد الله وحده دون ما سواه؛ فمعنىٰ ذلك أنه موقن بأن النفع له، والضّر عليه إنما هو بيد الواحد الأحد الذي عبده، وأن مصيره مرجعه إلىٰ هذا الذي عبده، وهذا كثير في القرآن، ومنها هذه الآيات، فذكر بعض أفراد الربوبية لقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ في صفة الخلق.

وكذلك في صفة الرزق؛ قال ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ هذه صفة الرزق.

كذلك ذكر صفة القهر والمِلك ملك الملكوت، التدبير فقال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

ثم ذكر صفة من صفاته وهي صفة العلو؛ قال: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ ﴾ والسّلم المعراج الذي يُرقىٰ إلىٰ السماء به ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

ثم ذكر أيضا صفات له تنزيهية فقال: ﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ وهذا مما ينفىٰ عن الله جل وعلا

لكمال غناه وكمال قيوميته سبحانه... إلىٰ آخر الآيات».

فإذن اشتملت علىٰ نوعي التوحيد الربوبية والأسماء والصفات، ولهذا قال في آخرها: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾، لأن نوعي التوحيد يستلزمان هٰذه النتيجة؛ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ﴾ والجواب أنه لا إله لهم غير الله كما قال في سورة النمل: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾، ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ إلىٰ آخر الآيات مما فيه إنكار.

إذا تقرر هٰذا؛ ففي هذه الايات حث علىٰ تفكر في أفراد الربوبية فقال جل وعلا: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ والاستفهام هنا إما أن يكون للإنكار أو يكون للتقرير؛ وإذا كان الإنكار إنكار ظن طائفة أنهم خلقوا من غير شيء، وإذا كان للتقرير فهو تقرير ضد ما ذكر هنا وهو المعروف في الجواب؛ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾؟ لا لم يخلقوا من غير شيء، ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ ؟ لم يخلقوا أنفسهم، ففيه تقرير للقسمة الثالثة؛ لأن الأقسام في السبر والتقسيم ثلاثة:

إما أن يكون الله جل وعلا هو الذي خلق.

والثاني أن يكون خلقوا أنفسهم.

والثالث أن يكونوا خُلقوا أو جاءوا من غير شيء.

ومعلوم أنهم إذا قالوا: جئنا من غير شيء؛ فهذا ينافيه الواقع، فهم جاءوا من ماء مهين وتخلّق في رحم الأم.

والثاني أنهم خلقوا أنهم هم الخالقون، هذا لا يدعونه لأنفسهم.

فبقي الاحتمال الثالث، وهذا نوع من الأدلة القرآني، وهو إثارة المسائل بالسبر والتقسيم، ومعلوم أن السبر والتقسيم وهو ما يسميه بعض العلماء بدليل الترديد، هذا يصلح أن يكون دليلا مستقلا؛ لأن إبطال الاحتمالات غير الواقعة وإبقاء الاحتمال الأرجح، وهذا نوع من البرهان، ولهذا تجد الفقه الذي هو من الظنيات نأتي للأدلة ونقول: هذا كذا وهذا كذا وهذا كذا يعني من حيث الأدلة، هذا الدليل يرِد عليه كذا فلا يصضلح وهذا يرد عليه كذا وكذا فلا يصلح، والثالث هو الذي يصلح لقلة الإيراد عليه، قد ذكر الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن معرفة الصواب المحض من الخطأ المحض هذا يدركه أكثر الناس، وأما معرفة أقوىٰ الدليلين وأقرب القولين للصواب مما يُتنازع فيه من المسائل الاجتهادية إنما

هو حظ العلماء؛ لأنهم هم الذين يرجحون هذا الدليل علىٰ غيره، وهذا الاستدلال علىٰ غيره من جهة قوته وضعف مخالفه.

ومن هنا لا يُتصور أن ثَم مسألة -من المسائل الفقهية العملية- دليل عليها البتة، وكذلك كثير من المسائل العلمية؛ العقائد وفي غيرها؛ لكن إذا كان الإيراد عليها كثيرا والإيراد علىٰ غيرها قليلا، فما كان الإيراد عليه كثيرا فهو ضعيف؛ لأنك لا تتصور في العلم أن هناك مسألة القول فيها هو كذا لأجل عدم الدليل للقول المخالف البتة، وهذا غير موجود إلا في مسائل نازعوا قليلا مما أحدث البدع أو الأقوال التي لا أصل لها، فقد يبقىٰ هناك دليل من القرآن أو من السنة، قد يكون يكون هنا دليلا من القواعد قد يكون هناك دليل من القياس إلىٰ آخرخ، فشأن العالم أن يرجح أقوىٰ الدليلين من الجهة الشرعية، أن يرجح أقوىٰ الاستدلالات من الجهة الأصولية، أن يرجح أقوىٰ الحكمين من الجهة الاجتهادية، فإذا نظر نظرا شرعيا فرجح فهذا هو العلم.

لهذا نقول: إنه في المسائل العملية مثل ما ذكرنا، أما في المسائل العلمية طبعا كانت في الصفات أو في الربوبية أو في الألوهية أو في كثير من المسائل المتصلة بهذه والوسائل إليها قد تجد اعتراضًا، قد تجد علىٰ ما يقوله أهل السنة اعتراضا، ولكن الاعتراض علىٰ غيرهم أكثر بكثير جدًّا؛ بل نسبة بين هذا وهٰذا؛ يعني في بعض المسائل في تقريرات أهل السنة علىٰ مسائلهم قد يكون هناك اعتراض للمبتدعة، وقد تأنس بعض العقول بهذا الاعتراض؛ لهذا راج كثير من الاعتراضات علىٰ كثير من الأذكياء، راجت بعض الاعتراضات علىٰ بعض العلماء الكبار سواء في مسائل توحيد العبادة والوسائل أو في الصفات أو في دلائل النبوة أو في مسائل الإيمان كالقدر وفي غيره؛ ما السبب؟ السبب أن لهم شبهة دليل، ولكن هذا الدليل ليس هو الدليل الصحيح في نفس الأمر، ليس هو الدليل الراجح في نفس الأمر.

ولهذا كمن أعظم ما تجعل نظرك منصبا إليه أن تفهم كيف ترجِّح بين الأدلة، كيف يرجح بين الاستدلات، وإلا فلا يتصور أن قولا من الأقوال لا دليل عليه البتة؛ لا من النقل ولا من العقل؛ لأن الناس لابد أنهم نشؤوا عن برهان، لا يفترض أنهم نشؤوا عن هوىٰ في مسائل الصفات وفي مسائل الإيمان لا؛ بل قالوا: الدليل كذا كالمعتزلة والجهمية عندهم ادلة تعقلية؛ لكن هل الدليل في نفسه هو الصحيح أم لا ؟

فلهذا نقول: إن من أحسن الاستدلات استدلال القرآن في المسائل العلمية والمسائل العملية؛ بل هو

أحسن الأدلة، أحسن الأدلة هو القرآن وأحسن الأوجه الاستدلال هو في القرآن، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾[النساء] ﷻ، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾[الزمر:٢٣] في أدلته العلمية والعملية هو أحسن الحديث، سبحان من تكلم به.

ومن الأدلة في القرآن الأدلة العظيمة السبر والتقسيم، تحصر الأوجه، ثم يقال: هذا كذا وهذا كذا فيبقىٰ الوجه التالي، ولم تكن الأدلة عليه كاملة؛ لكن يبقىٰ هو الذي لأنه يقيني.

لهذا تجد أن بعض الذين تشككوا في خلقهم ومعنىٰ الخالق وهو الذين خلقهم الله، لو تفكروا لوجدوا أن الاحتمالات لابد أن تلغىٰ ويبقىٰ هذا الاحتمال؛ يعني بالسبر والتقسيم هو الصحيح، كما جل وعلا هنا: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ما فيه، يعني إما أن السَّمٰوات والأرض جاءت هكذا، أو أنهم خلقوها، أو أن الله خلقها، ما فيه رابع؛ يعني أنها جاءت هكذا وهذا يترتب عليه أشياء؛ يعني يمكن أن نقول: أنها جاءت هكذا؛ لكن هل يعقل؟ هل يعقل أن هذا النظام البديع جاء هكذا اتفاقا لما في خصائص الأرض وخصائص الشمس وخصائص القمر، وما يحصل من أهل الأرض من التسخير بالشمس وبالقمر وبالنجوم وبالأفلاك وبشكل السماء، وهذا الجمال الذي فيها وهذه الألوان، وهذه الخصائص وقعت هكذا؟! يضعف.

هل هم خلقوها ؟ هذا باطل لأنه أحد يدعيها.

لاشك أنه يبقىٰ أن الذي خلق هو الله جل وعلا، هذا كثير في القرآن يدعو الله جل وعلا إلىٰ التفكر في هذا ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾[سبأ:٤٦]؛ وقوله: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ﴾ هذا فيه تنبيه إلىٰ أن الدلائل النظرية الدلائل التي عن طريق النظر والاستبصار في الملكوت؛ بل وفيما فيه برهان، هذا إذا اجتمع الناس فيها انحرفوا فيها عن الصواب، وإذا رجع الواحد إلىٰ نفسه أدرك الصواب؛ لأن كما قرر علماء السلوك والنفس العقلية الجماعية غير العقلية الفردية؛ فإن الإنسان قد يكون له عقل في جماعة -يعني من الناس في مجلس أو مدرسة أو في غيره- يكون له عقل في الجماعة من جهة الحماس له؛ لكنه إذا انفرد بنفسه وتأمل وجد أن البرهان ليس علىٰ هٰذا، ولهذا دعا الله جل وعلا المشركين إلىٰ أن يكون برهانهم عن طريق التفكر، إما مثنىٰ يتناجون بالبرهان الصحيح، وإما فرادىٰ.

وأما العقلية الجماعة فإنها تصرف عن الحق بكثير من الأشياء؛ لأنه يصبح المرء لا يفكر بعقله يفكر

المرء بغقل غيره، وأيضا غيره يفكر بعقله ثم يتحكم في المجموع آراء ليس لها خُطم و لا أزمّة.

وهذا الذي حصل مع أعداء الرسل إذا اجتمعوا صار لهم كلام، وإذا تفرقوا.. مثل ما حصل في قصة الثلاثة لما سمعوا توة النبي ﷺ في مكة كلٌّ يقر أن هذا الحق بمفرده؛ لكن لما اجتمعوا أنكروا ذلك، وهذا أيضا مما يحصل به معرفة البرهان، وهو أن لا يكون البحث فيه بحثا بعقلية تعدُّدية؛ بل بعقلية فردية، وهذا من فوائد هذه الآية.

والفوائد كثيرة في القرآن المسائل العلمية والعملية الشرعية والقدرية، وأنواع ذلك؛ فالقرآن تنفذ خزائنه، ولا يبلىٰ علىٰ كثرة الرد سبحان من تكلم به.

نكتفي بهذا.

مسائل أصول الدين نقول: يقينية علمية، إذا ما صار فيها إجماع مبني علىٰ ما هو قطعي الدلالة هذا يصير غير ظني؛ يقيني، الفقه كما هو معلوم ظني أصل الفقه ظني. إلا المسائل المجمع عليها التي لا خلاف فيها هذه تكتسب القطعية أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

[الدرس الخامس]

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ بِالْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ لِلْمَحْسُوسِ: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا﴾ أَيْ: عَلَيْهِمْ يُعَذَّبُونَ بِهِ، لَمَّا صَدَقُوا وَلَمَّا أَيْقَنُوا، بَلْ يَقُولُونَ: هَذَا ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ أَيْ: مُتَرَاكِمٌ. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الْحِجْرِ]. قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أَيْ: دَعْهُمْ -يَا مُحَمَّدُ- ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾، وَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أَيْ: لَا يَنْفَعُهُمْ كَيْدُهُمْ وَمَكْرُهُمُ الَّذِي اسْتَعْمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا، لَا يُجدي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَيْئًا، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أَيْ: قَبْلَ ذَلِكَ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السَّجْدَةِ]، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أَيْ: نُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَنَبْتَلِيهِمْ فِيهَا بِالْمَصَائِبِ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ وَيُنِيبُونَ، فَلَا يَفْهَمُونَ مَا يُرَادُ بِهِمْ، بَلْ إِذَا جُلِّيَ عَنْهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ، عَادُوا إِلَىٰ أَسْوَأِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: «إِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا مَرِضَ وَعُوفِيَ مَثَلُهُ فِي ذَلِكَ كَمَثَلِ الْبَعِيرِ، لَا يَدْرِي فِيمَا عَقَلُوهُ وَلَا فِيمَا أَرْسَلُوهُ». وَفِي الْأَثَرِ الْإِلَهِيِّ: كَمْ أَعْصِيكَ وَلَا تُعَاقِبُنِي؟ قَالَ اللهُ: يَا عَبْدِي، كَمْ أُعَافِيكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي؟

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أَيِ: اصْبِرْ عَلَىٰ أَذَاهُمْ وَلَا تُبَالِهِمْ، فَإِنَّكَ بِمَرْأًى مِنَّا وَتَحْتَ كَلَاءَتِنَا، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ: أَيْ إِلَىٰ الصلاة: سبحانك اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَىٰ جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ.

وَقَدْ رُوِيَ مِثْلُهُ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَغَيْرِهِمَا.

وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ»، عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ هَذَا فِي ابْتِدَاءِ الصَّلَاةِ. وَرَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ،

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَغَيْرِهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ أَيْ: مِنْ نَوْمِكَ مِنْ فِرَاشِكَ. وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ: وَيَتَأَيَّدُ هَذَا الْقَوْلُ بِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ:

حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ، حَدَّثَنَا الْأَوْزَاعِيُّ، حَدَّثَنِي عُمَيْر بْنُ هَانِئٍ، حَدَّثَنِي جُنَادَةُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ، حَدَّثَنَا عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»، ثُمَّ قَالَ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي -أَوْ قَالَ: ثُمَّ دَعَا- اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ صَلَّىٰ تُقُبِّلَتْ صِلَاتُهُ».

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَأَهْلُ السُّنَنِ، مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، بِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيح، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ قَالَ: مِنْ كُلِّ مَجْلِسٍ.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ قَالَ: إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ قَالَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو النَّضْرِ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدِّمَشْقِيُّ، حدثنا محمد ابن شُعَيْبٍ، أَخْبَرَنِي طَلْحَةُ بْنُ عَمْرٍو الْحَضْرَمِيُّ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ؛ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ قَوْلِ اللهِ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ يَقُولُ: حِينَ تَقُومُ مِنْ كُلِّ مَجْلِسٍ، إِنْ كُنْتَ أَحْسَنْتَ ازْدَدْتَ خَيْرًا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ كَانَ هَذَا كَفَّارَةً لَهُ.

وَقَدْ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي جَامِعِهِ: أَخْبَرَنَا مَعْمَرٍ، عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ الجَزَرِي، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ الْفَقِيرِ؛ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَّمَ النَّبِيَّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ مَجْلِسِهِ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ. قَالَ مَعْمَرٌ: وَسَمِعْتُ غَيْرَهُ يَقُولُ: هَذَا الْقَوْلُ كَفَّارَةُ الْمَجَالِسِ.

وَهَذَا مُرْسَلٌ، وَقَدْ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ مُسْنَدَةٌ مِنْ طُرُقٍ -يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا- بِذَلِكَ، فَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَنْ جَلَسَ فِي مَجْلِسٍ فَكَثُرَ فِيهِ لَغَطُهُ فَقَالَ قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ ذَلِكَ».

رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ -وَهَذَا لَفْظُهُ-وَالنَّسَائِيُّ فِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ جُرَيْجٍ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرِكِهِ» وَقَالَ: إِسْنَادٌ عَلَىٰ شَرْطِ مُسْلِمٍ، إِلَّا أَنَّ الْبُخَارِيَّ عَلَّلَهُ.

قُلْتُ: عَلَّلَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالْبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَأَبُو حَاتِمٍ، وَأَبُو زُرْعَة، وَالدَّارَقُطْنِيُّ، وَغَيْرُهُمْ. وَنَسَبُوا الْوَهْمَ فِيهِ إِلَىٰ ابْنِ جُرَيْج. عَلَىٰ أَنَّ أَبَا دَاوُدَ قَدْ رَوَاهُ فِي «سُنَنِهِ» مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ ابْنِ جُرَيْجٍ إِلَىٰ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَحْوِهِ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ -وَاللَّفْظُ لَهُ-وَالنَّسَائِيُّ، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ»، مِنْ طَرِيقِ الْحَجَّاجِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ هَاشِمٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ أَبِي بَرْزَة الْأَسْلَمِيِّ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ بِأُخْرَةٍ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ الْمَجْلِسِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَىٰ؟! قَالَ: «كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ فِي الْمَجْلِسِ».

وَقَدْ رُوِيَ مُرْسَلًا عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَهَكَذَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَالْحَاكِمُ، مِنْ حَدِيثِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيج، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مِثْلَهُ سَوَاءً وَرُوِيَ مُرْسَلًا أَيْضًا، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو؛ أَنَّهُ قَالَ: «كَلِمَاتٌ لَا يَتَكَلَّمُ بِهِنَّ أَحَدٌ فِي مَجْلِسِهِ عِنْدَ قِيَامِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِنَّ عَنْهُ، وَلَا يَقُولُهُنَّ فِي مَجْلِسِ خَيْرٍ وَمَجْلِسِ ذِكْرٍ، إِلَّا خُتِمَ لَهُ بِهِنَّ كَمَا يُخْتَمُ بِالْخَاتَمِ عَلَىٰ الصَّحِيفَةِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» وَأَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ، وَصَحَّحَهُ، وَمِنْ رِوَايَةِ جُبَيرِ بْنِ مُطْعِمٍ وَرَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، كُلُّهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَقَدْ أَفْرَدْتُ لِذَلِكَ جُزْءًا عَلَىٰ حِدَةٍ بِذِكْرِ طُرُقِهِ وَأَلْفَاظِهِ وَعِلَلِهِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أَيِ: اذْكُرْهُ وَاعْبُدْهُ بِالتِّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ فِي اللَّيْلِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾[الْإِسْرَاءِ].

قَوْلُهُ: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾ قَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُمَا الرَّكْعَتَانِ اللَّتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَإِنَّهُمَا مَشْرُوعَتَانِ عِنْدَ إِدْبَارِ النُّجُومِ، أَيْ: عِنْدَ جُنُوحِهَا لِلْغَيْبُوبَةِ. وَقَدْ رُوِيَ [فِي حَدِيثٍ] ابْنِ سِيلَانَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «لَا تَدَعُوهما، وَإِنْ طَرَدَتْكُمُ الْخَيْلُ». يَعْنِي: رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ. وَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ حُكِيَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ الْقَوْلُ بِوُجُوبِهِمَا، وَهُوَ ضَعِيفٌ لِحَدِيثِ: «خَمْسُ

صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ». قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا إِلَّا أَنَّ تَطَوَّعَ» وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنَ النَّوَافِلِ أَشَدَّ تَعَاهُدًا مِنْهُ عَلَىٰ رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ وَفِي لَفْظٍ لِمُسْلِمٍ: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا».

آخر تفسير سورة الطور والله أعلم.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن إله إلا الله وحده شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

اللّٰهمَّ صل وسلم وبارك علىٰ عبدك ورسولك محمد وعلىٰ آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه إلىٰ يوم الدين.

أما بعد؛ فهذه طائفة من الآيات ختمت بها سورة الطور، وسورة الطور -كما ذكرنا لكم في أولها- مشتملة علىٰ حال المعاد ومصير الكفار فيه ومصير المؤمنين، وحال الكفار في هذه الدنيا، وكيف أنهم لم يؤمنوا بآيات الله جل وعلا مع ظهور البرهان والدليل علىٰ وحدانيته ﷻ؛ كما في قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ﴾ ثم قال سبحانه بعد ذلك: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

الكفار الذين عاندوا الرسالات ولم يؤمنوا بما أنزل الله جل وعلا يطلبون دائمًا الحجة ويتظاهرون بأنهم يؤمنوا؛ أنه لم يقبل البرهان الواضح، ولو جاءتهم آية لآمنوا، وهذا في القرآن كثير.

ومجيء الآية التي طلبها الكفار:

- تارة يطلبون أن تكون الآية علىٰ الرسول أن تنزل عليه.

- وتارة يطلبون أن تكون الآية نازلة عليهم؛ كما في قوله: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾[الأنعام:١٢٤].

- وتارة يطلبون الآية أن تكون مع الرسول مصاحبة له بإنزال ملكا يمشي معه.

وهذه الآيات التي طلبوها ليسوا صادقين فيها في أنهم إذا جاءتهم الآية آمنوا؛ بل كلما جاءتهم آية لم يؤمنوا، الكفار أهل القديم وأهل الحديث جميعا وإلا فآيات الله جل وعلا ظاهرة بينة كثيرة الآيات المرئية والآيات المسموعة، لو عقلوا وأدركوا لعلموا أيضًا الاحتجاج بها.

الآيات التي كذَّب بها الكفار جاء في القرآن بيان أنهم كذَّبوا بما جاء من الآيات وتمنَّوا آياتٍ هي أقل مما جاءهم، وهذه الآيات الآتي تمنّوها هي علىٰ قسمين:

الأول: آيات كونية.

وهذا مثاله ما جاء في هذه الآية ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾، وكقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجر]، وأشباه هذا كالأنعام ويونس وغير ذلك.

النوع الثاني أن الآية طلبوها في الرسول تحدّيا؛ يعني أن تكون الرسالة لهم أو أن يكون الرسول منهم، كما في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[الزخرف] فهم تحكموا في المرسل إليه، وتحكموا أيضا في آيات الرسول؛ فطلبوا هذا وطلبوا هٰذا، مع أن الآيات الكونية جاءتهم بأعظم مما طلبوا، فقد جاءهم من الأمر الذي هو أعظم من سقوط كِسف من السماء أو فتح السماء كما قال سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾﴾[القمر]، رأوا القمر فلقتين: فلقة ذات اليمين وفلقة ذات الشمال، وما صدقوا، قالوا: سحرنا، كما أجاب الله جل وعلا في طلبهم فغي قولهم: افتح لنا باب في السماء ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[الحجر].

فإذن أعظم من فتح الباب لهم أن يقسم شيء في السماء؛ آية عظيمة التي هي القمر أن تقسم قسمين، وهذه لا يستطيع بشر أن يؤثر فيها بلا شك فهي آية من أعظم الآيات: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾[القمر].

إذن فالقرآن كله حجاج، الحجاج مع المشركين لإقامة الحجة عليهم، والله جل وعلا جعل أمثلة لما طلبوا ـ ولم يجبهم فيما طلبوا؛ لكن جعل هناك أمثلة آتاها الرسول عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لتكون حجة له، وهذا يفيد أهل الحق في حجاجهم مع أهل الباطل في أن لا ينساقوا معهم في كل ما يطلبون؛ بل يكفي أن يقيموا الحق بدليله وبرهانه في مسائل مما يفترضون، أو مما يطلبون، ثم ينساقوا معهم بعد ذلك.

وهذا يظهر لك في ضعف طائفة من المسلمين وخاصة في هذا الزمن في الجواب عن شبهات المشركين وشبهات الكفار من النصارىٰ واليهود وأذنابهم من المستشرقين وغيرهم فإنهم أكثروا من

إيراد الشبه علىٰ القرآن، وعلىٰ الرسالة، وعلىٰ وحدانية الله جل وعلا، وعلىٰ صحة التدين بدين الإسلام إلىٰ آخر ما أوردوه، فضعُفت طائفة فأرادوا أن يجيبوا عن كل ما أوردوه من الشبه، وهذا ليس منهجا صحيحا؛ بل المنهج الصحيح أن تقيم الحق بدليله، أن تقيم الحق الذي أنزله الله جل وعلا، وأن تفهمه الناس. والشبه أو ما يطلبه أولئك من جواب الشبه فيكفي أن ترد بعضه لدحض قولهم وافتراءاتهم، أما الانسياق معهم في كل ما يريدون، هذا خلاف ما نعلمه من منهج الحِجاج مع المشركين والكفار في كتاب الله جل وعلا. فالمؤمن يجب عليه أن يستعلي بإعلاء الله جل وعلا بلا إله إلا الله، وأن لا يضعف علىٰ أهل الباطل فيما يوردون، والله ﷻ بيّن ذلك أتم بيان في كتابه.

فلهذا قال بعد هذه الآية: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ -وفي آية الزخرف: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾-، ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ يعني في الدنيا أو في الآخرة: إما في الدنيا بالموت، أو في الآخرة حينما تأتي الصعقة التي لا يسلم منها أحد، حيث قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ: «يصعق الناس فأكون أول من يفيق» الحديث.

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ هذا تهديد ووعيد لهم، والتهديد يفيد القلوب العاتية كما أنَّ الترغيب يفيد القلوب المطمئنة أو القريبة، والجمع بينهما يفيد القلب الذي فيه هذا وهٰذا.

قال: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾، في قوله جل وعلا هنا: ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ هذا فيه إثبات لصفتين من الصفات التي تلازم الكفار؛ وهي ظنهم أنهم أغنياء لقوتهم أو بأبدانهم، بأموالهم.

والثانية أنهم سينصرون من أوليائهم.

وفي القرآن تجد نفيا لهٰذا، ونفيا لهٰذا، في آيات كثيرة، مجتمعة النفيين، ومنفصل أيضا، وغناهم بالأموال والأولاد، وما عندهم؛ كما قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾[سبأ:٣٧] الآيات.

والنصرة بالألهة التي اتخذوها أولياء كما في قوله: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ﴾ [الأحقاف:٢٨].

قال سبحانه بعد ذلك: ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ قد تبين لك أن معنىٰ قوله:

﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أن المراد به عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة، والظلم هنا المراد به الشرك؛ لأنهم ظلموا أعظم الظلم؛ لأن أهل الشرك ظلموا أعظم الظلم في حق الله جل وعلا إذ ادعوا أن معه آلهة أخرىٰ.

قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ نفي العلم هنا راجع إلىٰ شيئين:

الأول: أنه راجع إلىٰ عدم العلم بالحق، وهذا تكون معه الواو استئنافية.

والثاني: عدم العلم بوقت مجيء هذا العذاب أو أنه سيأتيهم لا محالة، وهذا تكون الواو عاطفة علىٰ ما قبلها عطف الجمل. قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ وتلك الصفتين عدم العلم بالحق وعدم العلم بمجيء العذاب جاءت في القرآن في مواضع كثيرة.

ثم قال سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ هذا الأمر بالصبر أمر للوجوب.

وحقيقة الصضبر كما هو معلوم أن يصبر لما حَكَم الله جل وعلا به شرعا، وما حَكم الله جل وعلا به قدرا؛ لأن الحكم في القرآن ينقسم إلىٰ حكم ديني شرعي وإلىٰ حكم كوني قدري كأمثاله من الإرادة والأمر والقضاء وأشباه ذلك.

فالصبر هنا للحكم الشرعي الديني إلا يلتفت الصابر إلىٰ ما يشبه به المبطلون، ولا إلىٰ ما يوردون ولا ما يعارضون به الرسالة؛ فلتصبر علىٰ هذا الحق حتىٰ يأتي وعد الله جل وعلا، وهذا مكلِّف وصعب وهو أصعب النوعين.

والثاني الصبر لحكم الله الكوني القدري، وهذا يمكن للكثيرين أن يصبروا عليه، ولكن الصبر الصاد الصبر الذي يشق علىٰ النفس؛ وهو الصبر علىٰ حكم الله الشرعي، ولهذا في آيات كثيرة نهىٰ الله جل وعلا نبيه علىٰ الاستعجال؛ كما قال سبحانه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾[الأحقاف:٣٥] الآية.

فإذن الصبر هنا المأمور به الصبر علىٰ حكم الله الشرعي، والصبر علىٰ حكم الله الكوني القدري.

أما الصبر علىٰ حكم الله الشرعي بأن يستمسك المرء بالتوحيد، وبما أنزل الله جل وعلا، ولا يميل إلىٰ أولئك الكفرة، وإلىٰ أولئك المشركين، والله سبحانه عصم نبيه وثبته وغيره يجب عليه أن يخاف كثيرا من الميل عن الصبر علىٰ حكم الله الشرعي؛ كما قال سبحانه لنبيه: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[الإسراء] كاد يركن إليهم شيئا قليلا؛

يعني في الأمور الدينية، ولولا أن ثبته الله لما صبر ولوقع في ذلك، وهذا يوجب علىٰ كل مؤمن وخاصة من كان يخالط أولئك أو يجاهدهم باللسان أو بالسنان أن يخاف أشد الخوف من أن يركن إليهم، وأن يترك الصبر علىٰ دين الله، الصبر علىٰ ما جاءت به الشريعة، الصبر علىٰ الأحكام، الصبر علىٰ الحق الذي علمه.

ومنه تعلم أن الذين تنازلوا عن الحق ودخلوا في مصالحات مع أهل الباطل من أنواع من الصالحات إما فكرية أو دينية وظنوا أن هذا فيه مصلحة= أن هذا ترك للصبر الواجب الذي أمر الله جل وعلا به؛ فليس المهم عندنا أن يصلح الناس، وإنما المهم أن نوافق الحكم الشرعي في صلاح الناس؛ لأن الزمن الحكم فيه ليس لنا، وإنما هذا قدر الله جل وعلا يمضي في خلقه، فنوح عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، ومع ذلك هو صابر علىٰ حكم الله جل وعلا الكوني وعلىٰ حكمه الشرعي، وما مال إلىٰ القوم وما صلحهم، والنبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ لما عرض عليه قومه المصالحة أنزل الله جل وعلا سورة البراءة العظيمة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾.

إذن مداهنة مع أهل الباطل في الحق الواضح الذي أنزله الله في كتابه، وهم يودون أن يترك بعض الحق حتىٰ ينتصروا؛ لهذا قال سبحانه: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾[القلم]، فيجب علىٰ كل أهل الإيمان أن يصبروا علىٰ الحق الذي معهم، وأن يصبروا علىٰ ما جاءت به الشريعة، وأن لا يلتفتوا إلىٰ غير ذلك.

كما أنه واجب عليهم أن يصبروا علىٰ حكم الله الكوني بتأخر النصر أو بما يحصل لأهل الإيمان من الابتلاء أو ما أشبه ذلك، فهذا الأمر لله جل وعلا من قبل ومن بعد.

فيه ذكر لمعنىٰ الربوبية الذي فيه التصرف في الكون، والتصرف في الملكوت، والقدر، فكلمة ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فيها رجوع المؤمن إلىٰ معاني توحيد الربوبية، والصبر والحكم متعلقان بالربوبية؛ يعني باستحضار معاني الربوبية، ثم الصبر يكون عبادة راجعة إلىٰ توحيد الإلهية.

قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ والأعين هنا المراد بها كما سمعتم: (فَإِنَّكَ بِمَرْأًى مِنَّا وَتَحْتَ كَلَاءَتِنَا) في رعايتنا وبمسمع منا، وهذا من التفسير باللازم؛ لأن لأن الأعين هنا لما أضافها الله دل وعلا إلىٰ نفسه فإن المراد منها إثبات صفة العينين لله جل وعلا؛ وقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الباء هذه أفادت أن المراد لازم الأعين لازم النظر وهو الكلأ والرعاية؛ كما في قوله سبحانه في الآية الأخرىٰ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[هود:٣٧]؛ يعني

بمرأًىٰ منا وبكلاءة ورعاية، والأعين هنا جمعت وجمع الأعين لله جل وعلا؛ لا يعني أن له أكثر من عينين؛ بل صفة الله ﷻ أن له عينين ﷻ كما ثبت في الحديث «وإن فإن ربكم ليس بأعور» يعني أن له ﷻ عيني جل جلاله، وهذه جاءت في القرآن مجموعة.

والجمع تبع يتبع قاعدة لغوية؛ وهي أن إضافة المثنىٰ إلىٰ ضمير الجمع الأفصح فيه أن يُجمع المثنىٰ، فالمثنىٰ إذا أضيف إلىٰ ضمير جمع أو ضمير تثنية أيضا فإن الأفصح أن يجمع المثنىٰ جمعا، وهذا هو الذي جاء في القرآن كما في قوله سبحانه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[ص:٧٥]، وهٰذا مثنىٰ، ثم قال في آية سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾﴾، ويتضح لك ذلك بقوله سبحانه في سورة التحريم: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[التحريم:٤] والمخاطب امرأتان، ولكل امرأة قلب ولما أضاف القلبين إلىٰ ضمير تثنية جمع؛ لأن ذلك هو الأفصح، وإلا فالأصل: فقد صغىٰ قلباكما لكن هذا ليس الأفصح؛ الأفصح أن يجمع لهذا قال فقد صغت قلوبكما مع أنهما قلبان.

المقصود أن من استدل بهذه الآية علىٰ أن الله جل وعلا يوصف بالأعين دون العينين؛ فإن هذا غلط في الاعتقاد وغلط في الاستدلال؛ لأن الجمع هذا ليس المراد منه الجمع وإنما المراد منه التثنية؛ لأن الإضافة تدل علىٰ ذلك بدليل حديث «إن ربكم ليس بأعور»، وفي اللغة أن الأعور هو فاقد أحد العينين.

قال ﷻ: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ سمعت كثرة الاختلاف للسلف في قوله جل وعلا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾.

في قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾:

هل قام من المجلس.

أو القيام من الليل في الصلاة.

أو هو القيام إلىٰ الصلاة؛ التسبيح في أول الصلاة دعاء الاستفتاح؟

وهذا كله راجع إلىٰ فهم قاعدة: وهي أن الألفاظ المجملة في القرآن التي لا يستبين المراد منها وجاءت بأمر أو نهي فإنه يستوضح أو يستبان الإجمال بالرجوع إلىٰ السنة؛ لأن السنة مبينة لمجمل القرآن، فرجعت طائفة إلىٰ السنة فوجدوا أنه حين يقوم المرء للصلاة يدعو بدعاء الاستفتاح بعد التكبير: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالىٰ جدك ولا إله غيرك» فقالوا: المراد بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ

﴿رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ إلىٰ الصلاة؛ لأن النبي ﷺ كان إذا قام في الصلاة دعا بهذا الدعاء في أول الصلاة.

وقالت طائفة: المراد بها كفارة المجلس كلام ابن كثير فيها الطويل، وحديث كفارة المجلس أعله طائفة من أهل العلم، وحصلت فيه المناظرة المعروفة ما بين البخاري وبين مسلم؛ إذ عارض البخاري مسلما في استدلاله بهذا الحديث فقال مسلم: إنه صحيح، فقال البخاري: ليس كذلك؛ بل له علة؛ فجثا مسلم بين يدي البخاري وقال: يا أستاذ الأستاذين ويا طبيب الحديث في علله أفدني، وذكر له علته بما هو معروف وليس هذا مكان إيضاحه.

وهناك من قال: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ يعني حين تقوم من الليل، واستدلوا له بحديث: «من تعارَّ من الليل فقال إله إلا الله الحديث الذي ساقه الإمام أحمد وعند غيره.

المقصود أن هذا تأخذه قاعدة: في أن اللفظ المجمل في القرآن إذا جاءت السنة فيه بأوجه فإن الخلاف فيه سعة، وهذا له أمثلة كثيرة من اختلاف السلف في التفسير، فمن علم السنة علم وجه اختلاف السلف في التفسير؛ لأن اختلافهم في التفسير:

إما أن يرجع لدلالات في القرآن مختلفة.

وإما أن يرجع لدلالات السنة مختلفة.

وإما أن يرجع إلىٰ دلالات في اللغة مختلفة.

مثل مثلا: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾[التكوير]، قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ هنا ﴿عَسۡعَسَ﴾ هل هو الإقبال أو الإدبار؟ اختلفوا، هذا من جهة دلالات اللغة.

وهذه المسألة الأخيرة ذكرها شيخ الإسلام في أصول التفسير؛ في المقدمة المعروفة.

فإذن حين يختلف السلف في التفسير:

فإما أن تُرجع هٰذا الاختلاف إلىٰ اختلاف الآيات.

وإما أن تُرجع هذا الاختلاف إلىٰ اختلاف في السنة؛ فيما يتعلق بلفظ الآية ودلالتها.

وإما أن يرجع إلىٰ الاختلاف في اللغة.

وبهذا يحصل لك تقريب كثير لاختلاف أقوال السلف وفهما في التفسير.

قال سبحانه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ وتسبيح الله جل وعلا معناه

التنزيه والإبعاد عن النقائص، فإذا اجتمع التسبيح والحمد صار أعظم كمال في الثناء؛ لأن التسبيح تنزيه عن النقائص والحمد إثبات للكمالات، الحمد ثناء بإثبات أنواع الكمالات الله جل وعلا كمال الذات، كمال الصفات، كمال الأفعال، كمال الأسماء، كمال الشرع والقدر جميعا.

والتسبيح فيها تنزيه عن النقائص في الذات وفي الصفات في الربوبية والألوهية والأفعال وفي الشرع وفي القدر.

ولهذا صار أعظم الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، هذا أحب الكلام إلىٰ الله، والجمع بين للتسبيح والحمد هذا هو الكمال في الثناء، فقوله القائل: سبحان الله وبحمده أعظم ثناء من سبحان الله وحدها، وأعظم من الحمد لله وحدها.

وإذا قال: سبحان الله والحمد لله و إلـٰه إلا الله والله أكبر، فهذا أعظم الكلام وأحب الكلام إلىٰ الله جل جلاله، فإن زاد لا حول ولا قوة إلا بالله صارت هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات التي يتنافس فيها المتنافسون كما جاء في تفسير قوله: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾[الكهف].

نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن خف علىٰ لسانه ذكر الحق دل وعلا فسبحه وحمده علىٰ كل حال؛ من الليل ومن النهار وفي كل تقلباتنا وأحوالنا.